



359

اسمي آرام

(مجموعة قصصية)

تأليف: وليام سارويان

ترجمة: فتحي الجميل وسلوى النعيمي

مراجعة: د. عبدالغني البزاز

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

أبريل 2006



الفنـــان : هارون الكندري

من كتالوج المعرض الشامل الثاني عشر
للفن التشكيلي الكويتي
ديسمبر ٢٠٠٥



اسمي آرام

(مجموعة قصصية)

تأليف: وليام سارويان
ترجمة: فتحي الجميل وسلوى النعيمي
مراجعة: د. عبدالغني البزاز

العدد 359 أبريل 2005



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
E Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

ردمك: ٥ - ١٨٩ - ٠ - ٩٩٩٠٦
رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٠٠٠١٠

اسمي آرام

(مجموعة قصصية)

العنوان الأصلي :

MY NAME IS ARAM

Selected Short Stories

By William Saroyan

عن دار النشر

Coedition LADDER,U.S.A, Ed.

NEO-CARTHAGE, Tunisia

1987

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2005م

إبداعات عالمية - العدد 359

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

الروح الطفولية الراشدة
في أدب «وليام سارويان»

المقدمة

يكتب وليام سارويان القصة القصيرة في «اسمي آرام» سيرة ذاتية، أو يكتب سيرة طفولته المرحة قصصا قصيرة تتشابه بناها؛ لأنها كتبت من وجهة نظر واحدة. هي وجهة نظر سارويان الطفل. إذ في بساطة اللغة التي كتب بها هذا الكتاب بساطة اللغة الطفولية، وفي الأسلوب المكرر المعاد ما في لغة الطفل من تكرار.

على أن أسلوب الكتابة لا يخبر عن «المنطق الطفولي» الذي تقمصه سارويان ببراعة فحسب، بل يخبر كذلك عن روح أرمينية شرقية ظلت ثاوية في سارويان صغيرا وكبيرا. فقد تميز السرد والحوار بنزعة شفوية جلية لا تخطئها العين. وأكاد أقول: لا تخطئها الأذن. وآيات ذلك في الكتاب كثيرة جدا. فالسرد كان إعاديا كأنما ينبع من الذاكرة ولا يخاطب غير الذاكرة، مشافهة لـ «مسامعة»، تعيد لها بقوالب سمعية جاهزة الحدث مرة ومرة. والحوار كان جمل مشافهة لا جمل مكاتبة، يتجلى في غياب الجمل الإسنادية في بعض الحوارات، وفي الانفعالات النفسية التي تخرج أنصاف جمل وتعابير شفوية، يعسر على العربية التعبير عن بعضها (انظر قصة: «منشدو الجوقة المشيخية» مثلا).

إن هذه النزعة الشفوية هي من صميم الروح الشرقية الأرمينية التي لم يكف ساورويان في هذا الكتيب عن التذكير بها. فلا شك أن التربية التقليدية التي تلقاها الكاتب قد غرست فيه روح وطن آبائه. لذلك ما فتئ يعبر بلغة إنجليزية وبأسلوب شرقي عاطفي ساخر مرح عن جملة من المبادئ والرؤى الأرمينية، ويصف نمط عيش شعب غريب هاجر إلى العالم الجديد (أمريكا)، وظل يحافظ على كثير من عاداته وعقائده، وظل يذكر الوطن ويرى فيه كل العالم.

ولعل الطريف في هذا الكتاب صورة العربي البائس، التي رسمها ساورويان بمنطق طفولي ماكر حزين، في قصة «العربي المسكين البائس». وهي صورة صادقة مؤثرة تدل على ما يشترك فيه المهاجرون الشرقيون الأغراب في الولايات المتحدة الأمريكية من عسر اندماج في العالم الجديد، ومن حنين عجيب قاتل إلى الوطن في الشرق.

على أن ساورويان تمكن في خضم تصوير المجتمع الأرمني المهاجر من أن يظهر صورا عن العقلية الأمريكية - الأوروبية الراسخة. إذ فضح في قصة «لوكوموتيف ٣٨ الهندي» النزعة العنصرية الكامنة في الشعب الأمريكي ذي الأصول الأوروبية ضد الهنود الحمر (السكان الأصليين)، والروح المادية البراجماتية التي تغلب على ما سواها من نظرات عنصرية أو تمييز عرقي أو طبقي.

إن العالم الذي يرسمه سارويان في «اسمي آرام» عالم مرح حزين، دنيء بريء، يحمل من التناقضات ما يجعله عالما طريفا، لكنه عميق يدعو إلى التأمل. إذ بث الكاتب في الأحداث والشخصيات الطفولية مثل «آرام ومراد وجوي»، وفي أعمال الراشدين الخرقاء والخبيثة (أعمال جيكو ومالك وزوراب وخوسروف) جملة من التأملات في الحياة والطبيعة والإنسان واللغة. وحسبنا الأفكار الطريفة التي ترتقي إلى الروح الفلسفية العميقة في قصة «أشجار الرمان»، أو قصة «العربي المسكين البائس». إذ ينبهنا سارويان إلى عجز اللغة عن التعبير الصادق، وتحويلها إلى قناع زائف يخفي المعنى الحقيقي؛ ولذلك يتخذ الخال «خوسروف» و«خليل» العربي البائس من الصمت لغة بديلة تغنيهما عن لغو اللغة.

وتحاول هذه الترجمة العربية لـ «اسمي آرام» أن تقرب إلى القارئ الأسلوب الساروياني المتفرد في الكتابة، من خلال محاولة الحفاظ على تلك الروح عند الترجمة ما أمكن، ما دام ذلك لا يخرق قواعد اللغة العربية التركيبية والتعبيرية.

بقلم: فتحي الجميل

وليام سارويان (١٩٠٨ - ١٩٨١)

نبذة عن حياته:

هو كاتب أمريكي تمجد كتاباته روح التفاؤل في خضم إحباطات الحياة وتناقضها. وقد استلهم معظم أعماله من تجاربه الخاصة، ما أضفى عليها بعدا شعريا تجلى في ما حاول أن يؤسس له من أسلوب شعري في كتابة الأقصوصة، دعاه بعض النقاد بالساروبانيسك Saroyanesque.

ولد وليام ساروبان في مدينة فريسنو بولاية كاليفورنيا لمهاجر أرميني فارق الحياة سنة ١٩١١، فأخذ وليام وإخوته إلى ملجأ أيتام في ألاميدا. وما لبث شمل العائلة أن اجتمع تحت رعاية الأم تاكوهي، ما مكن وليام من الالتحاق بالمعهد التقني سنة ١٩٢١، لكنه تركه في سن الخامسة عشرة.

وقد بدأت صلته بالأدب تتوثق عندما أطلعته أمه على بعض كتابات والده. فقرر الشاب أن يصبح كاتبا، وكون ثقافة عصامية أدبية، فيما كان يعمل «بشركة تلغراف سان فرانسيسكو». وقد بدأ ينشر باكورة أعماله في الثلاثينيات من القرن العشرين تحت اسم مستعار هو «سيراك غوريان».

استلهم ساروبان في كثير من أقاصيصه من طفولته وتجاربه الخاصة في مدينته «فريسنو» و«وادي سان جواكان»،

ومن تجارب المهاجرين الأرمن خصوصا. وتعد مجموعة «اسمي آرام»، الصادرة لأول مرة سنة ١٩٤٠، مثالا على ذلك. فهي تتعلق بفتى مشاغب لعائلة أرمينية مهاجرة، يخوض جملة من المغامرات الطريفة التي تنطوي - مع ذلك - على قدر كبير من العمق الفلسفي.

وكما عرف سارويان بكتاباته القصصية، عرف بكتاباته المسرحية المتفردة التي لا تعنى عناية كبيرة بقوانين الصراع الدرامي المتعارف عليها لدى غيره من كتاب المسرح. وقد نالت مسرحيته الكوميدية «قلبي في الأراضي المرتفعة» (١٩٣٩) جائزة المسرح في نيويورك. وتتعلق هذه المسرحية بفتى من عائلة أرمينية. أما مسرحية «أيام حياتك» (١٩٣٩) فقد نالت جائزة حلقة نيويورك للنقد الدرامي. وقد تحولت إلى فيلم سنة ١٩٤٨. على أن أشهر أعماله المسرحية كانت جملة من الأعمال الكوميدية من قبيل «الكوميديا الإنسانية» (١٩٤٣)، و«الكوميديا الباريسية» (١٩٦٠)، و«الكوميديا اللندنية» (١٩٦٠)، استلهم معظمها من رحلته المطولة إلى أوروبا التي بدأها في أثناء الحرب العالمية الثانية.

ولم تخل حياة سارويان العائلية من التقلبات. إذ تزوج سنة ١٩٤٣ من كارول ماركوس، التي أنجبت له آرام ولوسي. ثم طلقها، ثم تزوجها ثانية ثم طلقها. وقد أصبحت كارول ممثلة وأصبح ابنه آرام شاعرا كتب عن والده كتابا بعنوان «وليام ساورويان» نشره سنة ١٩٨٣، أي بعد وفاة والده بعامين.

أما حياته المادية فلم تكن مختلفة عن حياته الاجتماعية، إذ درت عليه مسرحية «الكوميديا الإنسانية» خصوصا أموالا طائلة، وانتدب للعمل في المجال السينمائي. لكن أحواله تدهورت وعانى جملة من المصاعب المالية بسبب تراجع مبيعات كتبه بعد الحرب العالمية الثانية، وتبذير أمواله في الخمر والقمار. وقد تعرض لحملة نقدية عنيفة، وآخذه النقاد على نزعته العاطفية. إذ كان سارويان يمجد الحرية والأخوة. وكان مثاليا في عهد أصبحت المثالية فيه بمثابة السبة.

وقد توفي وليام سارويان بمرض السرطان في ١٨ مايو ١٩٨١. وكانت له قولة طريفة عن الموت نختم بها: «إن الموت أمر محتم على كل البشر. لكني أعتقد دوما أن استثناء ما سيحصل لي أنا بالذات».

من أعماله القصصية والمسرحية (*):

- قلبي في الأراضي المرتفعة (١٩٣٩).
- أيام حياتك (١٩٤٠): مسرحية.
- اسمي آرام (١٩٤٠).

(*) قدمت سلسلة «إبداعات عالمية» («من المسرح العالمي» سابقا) مسرحيتين مترجمتين: أيام العمر - سكان الكهف، في العدد (٦٦) (المترجم).

- رجل شرير في الغرب (١٩٤٣): مسرحية.
- الكوميديا الإنسانية (١٩٤٣): مسرحية.
- مغامرات ويسلي جاكسون (١٩٤٦).
- الابن (١٩٥٠): مسرحية.
- أبي. أنت مجنون (١٩٥٧): مسرحية.
- قط وفأر ورجل وامرأة (١٩٥٨): مسرحية.
- انظر إلينا (١٩٦٧).
- الكلاب (١٩٦٨): مسرحية.
- اسمي سارويان (١٩٨٣).

١- صيفية الحصان الأبيض الجميل

ذات يوم من تلك الأيام الخوالي السعيدة، عندما كنت في التاسعة من عمري، وكان العالم مليئا بكل ما هو عجيب، والحياة لا تزال حلما بهيجا، جاءني مراد ابن عمي في الرابعة صباحا وأيقظني. وكان الناس جميعا - ما عداي - يعتبرونه مجنونا. ناداني من خارج نافذة غرفتي: آرام.

قفزت من سريري ونظرت خارج النافذة فلم أصدق ما رأيت. لم يكن الصبح قد طلع بعد، لكن الفصل كان صيفا، وكان الفجر على وشك الطلوع. وكان هناك ما يكفي من الضوء كي أدرك أنني لست أحلم.

رأيت ابن عمي مراد راكبا حصانا أبيض جميلا. فأطللت من النافذة... ربما كنت أحلم. لكنني رأيته.

قال باللغة الأرمينية: نعم. إنه حصان. أنت لست في حلم. تحرك بسرعة إن كنت ترغب في ركوبه.

كنت أعلم أن مراد شخص يستمتع بحياته أكثر من أي شخص جاء إلى هذا العالم مصادفة. لكن ما رأيته منه كان أمرا يصعب تصديقه. لقد كانت الجياد حلمي الأول، وكان أبعد أحلامي، وكان ركوبها أهم رغباتي. وهذا هو الجزء الرائع. لكننا كنا فقراء، وهذا ما منعني من تصديق ما رأيت.

كنا فقراء. ولم يكن لدينا مال. كانت عائلة جاروجلانيان كلها فقيرة. ولم يكن أحد يدري كيف كنا نحصل على ما يكفي من المال

حتى نقتات، ولا حتى كبار السن في العائلة. لكن أهم ما في الأمر أننا اشتهرنا بعدم ارتكابنا للسرقة. وقد عرف عنا ذلك منذ ما يقارب عشرة أجيال. حتى عندما كنا أغنى عائلة في الوطن ما كنا نود أن نتصور أنه العالم، كنا فخورين، ونؤمن بالحق والباطل. وما كان لأحدٍ منا أن يسرق.

لذا، فعلى رغم رؤيتي الحصان وسماعي إياه، فإنني لم أكن أستطيع تصديق أن للحصان صلة بمراد ابن عمي أو بي أو بأي أحد آخر من أقاربي، سواء أكنت مستيقظا أم نائما. لأني أعرف أن مراد ابن عمي لم يكن يملك من المال ما يكفي لشراء الحصان. فإن كان لا يملك المال لشراء الحصان ولم يكن ليسرقه، فلم هو معه؟

نظرت إلى ابن عمي أولا، ثم إلى الحصان وقلت: مراد! من أين سرقت هذا الحصان؟ فأجاب: اقفز من النافذة إن كنت تريد ركوبه.

كان ذلك صحيحا إذن. فقد أخذ الحصان من صاحبه. ولا شك في ذلك. وجاء يسألني إن كنت راغبا في ركوبه أم لا. حسن. لقد بدا لي أن سرقة حصان لركوبه ليست كسرقة شيء آخر، كالنقود مثلا. وحسب علمي، ربما لا تكون سرقة على الإطلاق. فإن كنت مهووسا بالجياد، كما هي حال ابن عمي وحالي، فستدرك أنها ليست بسرقة. إنها لا تعد سرقة حتى يعرضه للبيع. وهو بالطبع ما لا يمكن أن نفعله.

قلت: دعني أرتدي بعض الثياب.

قال: حسن. لكن بسرعة.

ارتديت ثيابي على الفور، وقفزت من النافذة وامتطيت الحصان خلف مراد ابن عمي. كنا في تلك السنة نسكن أطراف

المدينة. وكان الريف يقع خلف بيتنا. وفي أقل من ثلاث دقائق أصبحنا خارج المدينة، وبدأ الحصان عندئذ في العدو. كان الهواء منعشا لطيفا، وكان الإحساس بعدو الحصان رائعا. وطفق مراد ابن عمي - الذي يعد أحد أشد أفراد عائلتنا جنونا - يغني. أقصد أنه بدأ يزأر.

يوجد في كل عائلة من هذا العالم فرد مجنون من بين أفرادها. وكان مراد ابن عمي مجنون عائلتنا. وقبل مراد كان خالنا خوسروف، وهو رجل ضخم جدا، ذو شعر شديد السواد. وكان يقاطع كل من يتكلم مزمجرا قائلا: «هذا غير مهم». كان يفعل ذلك مع كل من يتكلم، مهما كان موضوع حديثه. وقد حدث ذات مرة أن جاء ابنه أراك يجري إليه ليخبره باحتراق منزلهم. فصاح فيه خوسروف: «هذا غير مهم».

وكان مراد ابن عمي أكثر الناس شبها بهذا الرجل، رغم أن والد مراد هو زوراب، الذي كان عاقلا. هكذا كانت حال عائلتنا. يمكن أن يكون الرجل أبا لابنه جسدا، لكن ذلك لا يعني أنه أب لروحه أيضا.

كنا على ظهر الحصان، ومراد ابن عمي يغني. وكنا لا نزال في الريف القديم الذي ننتمي إليه، بالنسبة إلى كل من كان يعرفنا، خصوصا بعض جيراننا، وتركنا الحصان يجري كما يشاء، ثم طلب مني ابن عمي أن أنزل، حيث أراد أن يكون بمفرده.

فقلت له: هل ستسمح لي أن أركب بمفردي أنا أيضا.

رد قائلا: هذا يعود إلى الحصان. انزل.

قلت: سيسمح لي الحصان بذلك.

قال: سنرى. لكن لا تنس أني خبير بالجياد.

قلت: حسن. إنني أعرف الجياد مثلما تعرفها.

قال: أقول هذا لأجل سلامتك. فلنأمل ذلك. هيا. انزل.

قلت: سأفعل. لكن تذكر أن عليك أن تدعني أحاول الركوب بمفردي.

نزلت. وصرخ مراد ابن عمي انطلق: انتصب الحصان على قائمتيه الخلفيتين وبدأ يعدو بسرعة لم أشهدها من قبل. جال ابن عمي بالحصان عبر حقل من الحنطة الجافة، ومضى إلى جدول فعبره، وعاد بعد خمس دقائق وقد بلل الماء كامل جسمه.

بدأت الشمس تشرق. فقلت: لقد حان دوري الآن للركوب.

نزل مراد ابن عمي من على ظهر الحصان، وقال: اركب.

قفزت على ظهر الحصان، وعرفت للحظة أشد خوف يمكن تصوره. ولم يتحرك الحصان من مكانه. فقال مراد ابن عمي: ماذا تنتظر؟ علينا إعادته قبل أن يستيقظ الناس ويخرجوا.

ثم إن الحصان ارتكز مرة أخرى على قائمتيه الخلفيتين وشرع يعدو. فلم أدر ما أصنع. وعوض أن يتجه نحو الجدول، فإنه عبر الحقل، نزل إلى طريق ضيعة الكرم التي يملكها ديكران هلابيان، حيث بدأ ينط فوق الكرمات، وقد قفز فوق سبع كرمات قبل أن أسقط. ثم استمر في العدو.

أقبل مراد ابن عمي مسرعا وصاح قائلا: علينا أن نمسك الحصان. اسلك هذا الطريق وسأسلك هذا. فإذا أمسكت به فكن لطيفا معه. سأكون قريبا منك.

مضيت في طريقي، في حين شق مراد ابن عمي الحقل متجها إلى الجدول. واستغرق الأمر نصف ساعة ليجد الحصان ويأتي به. قال: حسن. اقفز على ظهره. لقد أفاق الجميع الآن.

قلت: ماذا نحن صانعان؟

قال: «حسن. إما أن نعيده وإما نتركه حيث لا يراه أحد حتى صباح الغد». كنت أعرف أنه سيتركه حيث لن يستطيع أحد العثور عليه، وأنه لن يعيده. ولن يفعل ذلك لمدة طويلة على كل حال.

قلت: أين سنضعه؟

قال: أعرف مكانا يصلح لذلك.

قلت: متى سرقت هذا الحصان؟

لقد خطر لي فجأة أنه قام بركوب هذا الحصان في الصباح الباكر منذ فترة، ثم أتاني في هذا الصباح لمعرفته بمدى رغبتي بركوب الخيل.

قال: عن أي سرقة تتحدث؟

قلت: على أي حال، قل لي: منذ متى بدأت ركوبه كل صباح؟

قال: ليس قبل هذا الصباح.

قلت: هل تقول الحقيقة؟

قال: طبعا لا. لكن إذا ما اكتشف أحد أمرنا، فإن هذا هو ما عليك قوله. لا أريد أن نكذب. كل ما تعرفه أننا بدأنا ركوب الحصان هذا الصباح.

قلت: حسن.

ساق مراد الحصان برفق إلى مخزن ضيعة كرم قديمة كان يملكها في يوم ما مزارع يدعى فيتفا جيّان، ثم عدنا سائرين إلى

المنزل. وقال: لم يكن من السهل جعل الحصان يعدو بجنون، لكني - كما أخبرتك - خبير بالجياد. وبإمكاني جعله يفعل راضيا كل ما أرغب في أن يفعله. إن الجياد تفهمني.

قلت: كيف يتسنى لك فعل ذلك؟

قال: إني أفهم بالجياد.

قلت: نعم. لكن ما طبيعة هذا الفهم؟

قال: فهم بسيط وحقيقي.

قلت: حسن. أريد أن أعرف كيف أبلغ مثل ذلك الفهم مع الجياد.

قال: إنك لا تزال طفلا صغيرا. عندما تبلغ الثالثة عشرة ستدرك كيف يتسنى لك ذلك.

عدت إلى المنزل وتناولت إفطارا وفيرا.

في عصر ذلك اليوم جاء خالي خوسروف إلى منزلنا، وجلس هناك يدخن متذكرا الريف القديم. ثم وصل زائر آخر هو مزارع يدعى جون بيرو. فجلس وبدأ يدخن برهة ثم قال بحزن: إن حصاني الأبيض الذي سرق الشهر الماضي لا يزال مفقودا. لا أستطيع فهم ذلك.

غضب خالي خوسروف كثيرا وصاح مزمجرا: هذا غير مهم. وماذا يعني فقدان حصان؟ ألم نفقد نحن جميعا الوطن؟ ما كل هذا البكاء من أجل حصان؟

قال جون بيرو: قد يكون ما قلته صحيحا بالنسبة إلى رجل مثلك من سكان المدينة. لكن كيف لريفي مثلي أن يتنقل دون حصان؟

زمجر خالي خوسروف قائلا: هذا غير مهم.

قال جون بيرو: لقد سرت عشرة أميال حتى أصل إلى هنا.

صاح خالي خوسروف قائلا: لديك رجلان.

قال المزارع: إن رجلي اليسرى تؤلمني.

زمجر خالي خوسروف قائلا: هذا غير مهم.

قال المزارع: كلفني هذا الحصان ستين دولارا.

قال خالي خوسروف: وما أهمية المال؟

ونهض وغادر المنزل.

وأوضحت أمي الأمر قائلة: إن له قلبا طيبا. لكن الأمر يعود إلى اشتياقه إلى الوطن.

غادر المزارع منزلنا، فهرعت إلى منزل ابن عمي مراد، فوجدته جالسا عند شجرة فاكهة يحاول أن يضمد جناح طائر صغير مكسور، وغير قادر على الطيران. وكان يتحدث إلى الطائر. قال لي: ما الأمر؟

قلت: لقد جاء المزارع جون بيرو إلى منزلنا. وهو يريد استرجاع حصانه. لقد أخذته طيلة شهر، وأريدك أن تعدني بألا تعيده حتى أتعلم ركوب الخيل.

قال مراد: ستحتاج إلى سنة لتتعلم ركوب الخيل.

قلت: يمكننا الاحتفاظ بالحصان سنة كاملة.

قفز مراد ابن عمي واقفا، وصاح: ماذا تقول؟ أتطلب من أحد أفراد عائلة جاروجلانيان أن يسرق؟ يجب أن يعود الحصان إلى صاحبه.

قلت: متى؟

قال: في غضون ستة أشهر على الأكثر.

ورمى الطائر في الهواء. حاول الطائر جاهدا وكاد يقع مرتين، وأخيرا طار بعيدا، محلقا عاليا وباستقامة.

كنا - أنا ومراد ابن عمي - نخرج الحصان في كل صباح باكر طيلة أسبوعين من المخزن الذي أخفيناه فيه. وكان الحصان في كل صباح - حين أمتطيه بمفردي، يقفز فوق الكروم والأشجار الصغيرة، ويقذف بي ويمضي بعيدا، ومع هذا، كنت آمل أن أتعلم في الوقت المناسب ركوب الخيل، كما يفعل ابن عمي مراد. كنت أرغب أيضا في تعلم طريقة مراد ابن عمي في ركوب الخيل.

وذات صباح - بينما كنا في طريقنا إلى ضيعة الكرم القديمة التي يمتلكها فيتفاجيان - صادفنا المزارع جون بيرو الذي كان في طريقه إلى المدينة. قال مراد ابن عمي: دع لي مهمة الحديث معه. فإني أعرف كيف أتحدث إلى المزارعين.

قال مراد ابن عمي للمزارع: صباح الخير يا جون بيرو.

تمعن المزارع في الحصان جيدا وقال: صباح الخير يا أبناء أصدقائي، ما اسم حصانكما؟

قال مراد ابن عمي بالأرمينية: اسمه «مايهارت» [قلبي].

قال جون بيرو: اسم جميل لحصان جميل. إنه شديد الشبه بالحصان الذي سرق مني منذ أسابيع عديدة. هل بإمكاني النظر في فمه؟

قال مراد: طبعا.

ونظر المزارع في فم الحصان وقال: لو لم أكن أعرف أبويكما وأميكما لقلت إنه حصاني. إني أعرف شرف عائلتكما جيدا. لكن

الحصان أشبه ما يكون بحصاني. إن امرأ قليل الثقة بالآخرين يصدق عينيه عوض تصديق قلبه. طاب يومكما يا أصدقائي الصغار.

قال مراد ابن عمي: طاب يومك يا جون بيرو.

وفي الصباح الباكر من غداة ذلك اليوم أخذنا الحصان إلى ضيعة جون بيرو، ووضعناه في المخزن. وكانت الكلاب تتبعنا دون أن تصدر صوتا.

قال مراد ابن عمي: إني أعرف الكلاب.

وضع مراد ذراعيه حول الحصان، وجعل أنفه قريبا من أنف الحصان، ثم غادرنا.

جاء جون بيرو عصر ذلك اليوم إلى منزلنا، ليري أمي الحصان الذي سرق منه ثم أعيد إليه.

قال: لست أدري ما أقول. لقد أصبح الحصان أقوى من ذي قبل، وأكثر لطفا أيضا. حمدا لله.

فاشتد غضب خالي خوسروف الذي كان في منزلنا عندئذ. وصاح قائلا: اصمت يا رجل... اصمت. لقد أعيد إليك حصانك. وهذا لا يعني شيئا.

٢- الرحلة إلى هانفورد

حان الوقت لعمي جورجي - ذات سنة - ليهيئ دراجته ويركبها مسافة سبعة وعشرين ميلا إلى هانفورد، حيث بدا أنه حصل على عمل هناك. وقد صاحبتهُ أنا في تلك الرحلة، رغم أنهم في بداية الأمر قد فكروا في إرسال ابن عمي فاسك عوضا عني.

لم تكن العائلة تحبذ التحدث كثيرا عن وجود فرد أبله من أفرادها مثل جورجي، لكنها أرادت في الوقت نفسه أن تنتهز فرصة الصيف لنسيانه فترة من الزمن، فإذا ما غادر وحصل على عمل في حقول البطيخ في هانفورد فإن الجميع سيكونون على ما يرام، إذ سيكسب جورجي بعض المال، وسيكون بعيدا عن العائلة في آن، وكان هذا الهدف الرئيس من إبعاده.

قال جدي: ليغرب هو وقيثارته. إذا قرأت في أحد الكتب أن رجلا يجلس طوال اليوم تحت شجرة ويعزف على قيثارة ويغني، فاعلم أن هذا الكاتب لا يفقه شيئا. المال هو الغاية. ليذهب هو وقيثارته ويعمل فترة تحت الشمس.

قالت جدتي: هذا ما تقوله الآن، ولكن بعد أسبوع ستشعر بالحاجة إلى الموسيقى مرة أخرى.

قال جدي: كلامك هذا لا معنى له، إذا قرأت في كتاب ما أن الرجل الذي يغني رجل سعيد حقا، فاعلمي أن هذا الكاتب يحلم. دعيه يذهب، المسافة إلى هانفورد سبعة وعشرون ميلا. إنه مكان على بعد مناسب.

قالت جدتي: إنك تتحدث الآن بهذه الطريقة، لكنك ستصبح كئيبا خلال ثلاثة أيام. سأراك تمشي هنا وهناك كالحيوان المقيد. أنا من سيرى ذلك، وحينئذ، أنا من سيضحك.

قال جدي: إنك لامرأة، إذا قرأت في أحد الكتب أن المرأة هي حقا شخص رائع، فاعلمي أن هذا الكاتب قد أشاح بوجهه عن زوجته وبدأ يحلم. دعيه يذهب.

قالت جدتي: كل ما في الأمر أنك لم تعد شابا، وهذا ما يجعلك تزأر.

قال جدي: اخرسي، وإلا لطمتك على فمك.

نظر جدي إلى أبنائه وأحفاده في أرجاء الغرفة، وقال: أنا أرى أن يذهب إلى هانفورد على دراجته، ماذا ترون؟

لم ينطق أحد بكلمة. فقال: لقد قُضِي الأمر إذن، والآن من سنرسله ليرافقه؟ نرسل من من أبنائنا مع جورجي إلى هانفورد؟ من منهم سيئ للغاية كي نرسله معه؟ إذا قرأت في أحد الكتب أن الرحلة إلى مدينة أخرى تجربة ممتعة للشاب، فاعلم أن هذا الكاتب قد يكون في الثمانين أو التسعين من عمره، وأنه ابتعد في طفولته مسافة ألفي ميل بعيدا عن منزله. من علينا أن نرسل؟ أنرسل فاسك؟ هل سيكون فاسك هو المرافق؟ تعال هنا أيها الولد.

نهض فاسك ابن عمي ووقف أمام الرجل العجوز الذي نظر إليه متفحصا، ووضع يده على وجهه فغطته تماما تقريبا. لكن فاسك لم يتحرك.

قال له جدي: أترافق عمك جورجي إلى هانفورد.

قال فاسك: سأفعل إن كان ذلك يرضيك.

قال الرجل العجوز: دعني أفكر دقيقة. إن جورجي معتوه عائلتنا، وكذلك أنت. هل من الحكمة الجمع بين أبلهين معا؟

والتفت إلى الآخرين قائلا: أريد أن أسمع رأيكم، هل من الحكمة الجمع بين أبله ناضج وآخر في طور النمو من العائلة نفسها؟ هل هذا مجد؟ تكلموا بصوت مرتفع كي أرى ما سأفعل.

قال عمي زوراب: هذا ما يجب أن نفعله، أن نجمع بين أبله وأبله. الكبير يعمل، والصبي يعتني بالمنزل ويطهو الطعام.

قال جدي: لنرَ . أبله وأبله: أحدهما للعمل والثاني للعناية بالمنزل والطهو. هل تحسن الطبخ أيها الولد؟

قالت جدتي: هو يحسن الطبخ. يطبخ الأرز على الأقل.

قال جدي: هل تستطيع طبخ الأرز أيها الولد؟ أربع كؤوس من الماء وكأس من الأرز ومقدار مناسب من الملح. هل تعرف الطريقة التي تحول بها هذا إلى ما يشبه الطعام؟ أم إننا نحلم؟

قالت جدتي: إنه يعرف كيف يطهو طبعا، على الأقل يعرف كيف يطهو الأرز.

فقال جدي: هل تعرف كيف تطهو الأرز فعلا؟ دعي الولد يتكلم بنفسه، وإلا لكمتك على فمك. هل تستطيع ذلك أيها الولد؟ إذا قرأت في أحد الكتب أن صبيا يجيب رجلا عجوزا بحكمة، فاعلم أن هذا الكاتب لا يفقه شيئا.

هل تستطيع أن تحول ذلك إلى ما يشبه الطعام؟

قال فاسك لقد سبق أن طبخت أرزا وكان كالطعام.

قال جدي: هل كان فيه ما يكفي من الملح؟ إذا نويت الكذب فتذكر يدي.

لم ينطق فاسك بكلمة برهة، كما لو كان يبحث عن الكلمات المناسبة.

فقال جدي: لقد فهمت. إنك لست راضيا عن الأرز الذي طهوته، ماذا كانت المشكلة؟ ما يهمني هو الحقيقة. تكلم ولا تخف، إذا قلت الحقيقة دون خوف، فلن يطلب منك أحد أكثر من ذلك. ما الذي يجعلك غير راض عن الأرز؟

قال فاسك: كان مالحا جدا. شربنا الماء ليل نهار. كان الأرز مالحا جدا.

قال جدي: لا تؤلف من هذا قصة، اذكر الحقيقة فقط، كان الأرز مالحا جدا ومن الطبيعي أنكم شربتم الماء ليل نهار، لقد أكلنا جميعنا مثل هذا النوع من الأرز، وإذا كنت قد شربت الماء ليل نهار فلا تظنن أنك الأرميني الوحيد الذي فعل ذلك. قل لي فقط إنه كان مالحا جدا، فأنا لست في موقع التعلم، أنا أعرف هذا، قل لي فقط إنه كان مالحا جدا، ودعني أحاول أن أقرر ما إذا كنت الشخص المناسب للذهاب.

أربعة أكواب من الماء، وكوب من الأرز، ومقدار مناسب من الملح. هل تعرف كيف تجعل من ذلك طعاما؟ أم أننا نحلم؟

قالت جدتي: طبعا يعرف كيف يطهو الأرز.

التفت جدي إلى الآخرين وقال: أعتقد أن هذا هو الصبي المناسب للذهاب، لكن أخبروني إن كان لديكم رأي آخر. أن يكون الأرز مالحا خير من أن يكون كأكل الخنازير. إذن هل نرسل هذا الصبي فاسك الجاروجلانياني أم من؟

ثم طرأت فكرة أخرى لعمي زوراب، فقال: أبلهان يذهبان معا. لا، لا أحبذ ذلك، أنا أرى إرسال آرام. لعل من الأفضل أن يذهب هو بسبب ما فعل.

نظر الجميع إلي، فقال جدي: آرام؟ أتعني الطفل الذي يضحك؟ آرام جاروجلانيان ذو الضحكة العالية؟

قالت جدتي: ومن يمكن أن يعني غيره؟ أنت تعرف جيدا من يعني.

استدار جدي ببطء ونظر إلى جدتي مدة نصف دقيقة، ثم قال: إذا قرأت في أحد الكتب عن رجل أحب فتاة وتزوجها، فاعلم أن هذا الكاتب يكتب في الواقع عن شاب في مقتبل عمره لا يدرك أنها ستظل تتكلم كثيرا جدا حتى تبلغ نهاية حياتها، وذلك وهي في التاسعة والسبعين من عمرها. إن هذا الكاتب يتحدث عن فتى أصغر من ذلك. ثم قال: أتعني آرام؟ آرام الجاروجلانياني؟

قال عمي زوراب: نعم.

قال جدي: وما هو ذلك العمل السيئ للغاية الذي اقترفه؟

قال عمي: إنه يعرف ذلك.

عندئذٍ نادى جدي عليَّ: آرام جاروجلانيان.

نهضت ووقفت أمام جدي، فوضع يده الكبيرة على وجهي بلطف وقال: ماذا اقترفت أيها الولد؟

بدأت أضحك وأنا أتذكر الأشياء التي فعلتها، أنصت جدي برهة، ثم بدأ يضحك معي، ضحكنا أنا وهو فقط، في حين لم يجرؤ الآخرون على الضحك. فقد أخبرهم جدي من قبل ألا يضحكوا إلا إذا استطاعوا الضحك مثله. وكنت الجاروجلانياني الوحيد في العالم الذي يضحك مثله.

قال جدي: أخبرني يا آرام الجاروجلانياني، ماذا فعلت؟

قلت : أي فعلة تعني؟

التفت جدي إلى عمي زوراب قائلا: أي فعلة؟ حدد له فعلة سيئة يقر بها. يبدو أن أفعاله السيئة كثيرة.

قال عمي زوراب: هو يعرف أي فعلة بالتحديد.

قلت: أتقصد ما قلته للجيران عنك بأنك مجنون؟

فلم يرد عمي زوراب، فقلت: أم تقصد تجوالي هنا وهناك مقلدا طريقتك في الكلام؟

قال عمي زوراب: هذا هو الصبي الذي ينبغي إرساله مع جورجي.

قال جدي: هل تعرف كيف تطهو الأرز؟

لم يهتم بمعرفة أي شيء عن تقليدي لطريقة عمي زوراب في الكلام. فإن كنت أستطيع طهو الأرز علي أن أرافق جورجي إلى هانفورد. وهذا ما حدث فعلا. كنت أريد الذهاب مهما كانت حقيقة الكاتب الذي كتب أن السفر بالنسبة إلى الصبي يعتبر تجربة جيدة. وسواء أكنت أبله أم غير ذلك، فقد كنت أريد الذهاب.

قلت: أستطيع طبخ الأرز.

قال جدي: مالحا أم ماذا؟

قلت: مالح حينا وجيد أحيانا أخرى.

قال جدي: لنفكر.

وظل يفكر ثم قال لجدتي: إلي بثلاث كؤوس كبيرة من الماء.

فذهبت جدتي إلى المطبخ وعادت بعد برهة تحمل ثلاث كؤوس كبيرة من الماء. فشربها جدي واحدة تلو الآخر. ثم التفت إلى

الجميع بوجه تبدو عليه علامات التفكير وقال: مالح حينا، وجيد أحيانا أخرى، هل هذا هو الصبي المناسب لإرساله إلى هانفورد.

قال عمي زوراب: نعم، إنه هو دون غيره.

قال جدي: ليكن ذلك. انتهى الأمر. دعوني بمفردي الآن.

أردت أن أنصرف فأمسكني جدي من عنقي قائلا: ابق قليلا، وحين أصبحنا بمفردنا، قال: قلد طريقة عمك زوراب في الكلام، ففعلت ذلك. عندها قهقه جدي وقال: اذهب إلى هانفورد، اذهب مع الأحمق جورجي واطبخ الأرز مالحا أو اطبخه جيدا.

وهكذا تم اختياري لمصاحبة عمي جورجي في رحلته إلى هانفورد، انطلقنا في صباح اليوم التالي قبل الشروق، وتناوبنا ركوب الدراجة والسير على الأقدام، ولم نصل هانفور لقبل عصر ذلك اليوم. كان يفترض بنا أن نبقى في هانفورد حتى الانتهاء من المهمة، أي بعد موسم البطيخ. كانت تلك هي الفكرة، تجولنا في المدينة بحثا عن منزل نقيم فيه، منزل نستطيع أن نطبخ فيه ويتوافر فيه الماء. عاينّا ستة منازل أو سبعة، ثم رأينا منزلا أعجب عمي جورجي. فانتقلنا إليه في ذلك المساء، كان المنزل يحتوي على إحدى عشرة غرفة ومطبخ مجهز بحنفية ماء، وغرفة بها سريران، أما بقية الغرف فقد كانت خالية. أخرج عمي جورجي قيثارته وجلس على الأرض وبدأ يعزف ويغني. كان اللحن جميلا. كان حزينا تارة، وسعيدا تارة أخرى، لكنه كان جميلا دائما. ولا أدري كم أمضى من الوقت يعزف ويغني، قبل أن يدرك أنه بحاجة إلى الطعام، إذ نهض فجأة من الأرض وقال: آرام. أريد أرزا.

طبخت أرزا مالحا تلك الليلة، لكن عمي جورجي. قال إنه لذيذ.

أيقظتنا الطيور مع طلوع الصباح فقلت لعمي: أنت تعلم أنك ستبدأ العمل اليوم.

فصاح عمي جورجي قائلا: اليوم؟

وخرج من المنزل حزينا، وخرجت أنا وجلست على عتبة المنزل، كان المكان يبدو عند بزوغ النهار جزءا جميلا من العالم، كان الشارع يضم أربعة منازل فقط وكنيسة، ومكثت جالسا هناك قرابة ساعة، ظهر عمي جورجي على دراجته يقودها في الشارع من جانب الطريق إلى جانبه الآخر، وقد ارتسمت على محياه ابتسامة عريضة وقال: العمل لا يبدأ اليوم، حمدا لله.

وسقط من على دراجته بين بعض الأزهار التي كانت تنمو على جانب الطريق فقلت: ماذا؟

قال: لا يوجد عمل، لا عمل، حمدا لله.

ووضع زهرة أمام أنفه، فتساءلت: لا عمل؟

قال: لا عمل، حمدا لله.

ونظر إلى الزهرة باسما، فقلت: وما السبب؟

قال: البطيخ.

قلت: ما به؟

قال: لقد انتهى موسمه.

قلت: هذا ليس صحيحا.

قال عمي جورجي: لقد انتهى موسم البطيخ. صدقني لقد انتهى.

قلت: سيدق والدك عنقك.

قال: لقد انتهى الموسم، حمدا لله، لقد حُصِدَ البطيخ كله.

قلت: من أخبرك ذلك؟

قال عمي جورجي: صاحب الضيعة نفسه، لقد أخبرني بذلك صاحب الضيعة نفسه.

قلت: إنه لم يقصد ذلك، لقد قال ذلك لأنه لم يشأ جرح مشاعرك، قال ذلك فقط لأنه كان يعلم أن قلبك لن يكون معك وأنت تعمل.

قال عمي جورجي: حمدا لله، انتهى الموسم برمته، لقد جُنِيَ البطيخ كله.

قلت: ماذا نحن صانعان؟ لقد ابتدأ الموسم للتو.

قال عمي: بل انتهى، سنعيش في هذا المنزل شهرا ثم نعود، لقد دفعنا ستة دولارات لنقيم هنا، ولدينا من النقود ما يكفي لشراء الأرز، سنبقى هنا نحلم شهرا ثم نعود.

قلت: سنعود بلا نقود.

قال: لكن بصحة جيدة.

أخذ عمي يرقص بقيثارته في المنزل، وقبل أن أقرر ماذا عساي أن أفعل معه بدأ العزف والغناء، كان أداؤه جميلا جدا، لم أتمكن معه من النهوض كي أقول له ما يفيده. فبقيت جالسا في الخارج على العتبات مستمعا لأدائه.

مكثنا في المنزل شهرا ثم عدنا، وكانت جدتي أول من رآنا فقالت: لقد عدتما في الوقت المناسب. لقد ظل الرجل العجوز يزمجر مثل الحيوان، والآن هيا سلماني النقود.

قلت لها: لا نقود لدينا.

قالت جدتي: هل اشتغل؟

قلت: لا، لقد عزف على قيثارته طيلة الشهر.

قالت : وكيف كان الأرز الذي طبخته؟

قلت: كان مالحا أحيانا، وجيدا أحيانا أخرى، لكن عمي جورجي لم يعمل.

قلت: ينبغي ألا يعلم والده بالأمر.

ودخلت المنزل وأتت ببعض المال ووضعته في يدي وقالت: عندما يأتي جدك إلى المنزل سلم إليه هذه النقود.

ونظرت إلي برهة ثم أردفت: آرام الجاروجلانياني.

قلت: سأفعل ما طلبت.

وعندما عاد جدي إلى المنزل بدأ يصرخ، وقال: هل رجعتما إلى المنزل؟ هل انتهى الموسم مبكرا جدا؟ أين هي النقود التي جناها؟

فناولته النقود، فصاح: لا أريده أن يظل يغني طيلة اليوم، إذا قرأت في أحد الكتب أن أبا يحب ابنه الأحمق أكثر مما يحب أبناءه العاقلين، فاعلم أن هذا الكاتب ليس متزوجا.

وأخذ عمي جورجي يعزف ويغني تحت شجرة الفاكهة. فصمت جدي فجأة. وبدأ ينصت، وجلس على كرسيه ونزع حذاءه.

ذهبت إلى المطبخ لأشرب ثلاث كؤوس أو أربعا من الماء، فقد كان أرز البارحة أقرب إلى الملوحة، ولما عدت وجدت الرجل العجوز نائما على كرسيه وهو يبتسم. وكان ابنه جورجي يغني للعالم الشاسع أجمع بأعلى صوته الشجي.

٣- أشجار الرمان

لا ريب أن عمي مالك بالتأكيد لم يكن أفضل فلاح عاش على الأرض، إلا أن أحلامه كانت لا حدود لها، كان الجمال كل شيء بالنسبة إليه. أراد أن يزرع الجمال ويراه ينمو. وقد غرست له بنفسي أكثر من مائة شجرة رمان ذات سنة، حين كان العالم كله يبدو في مقتبل العمر. وقدت جرارا، وكذلك فعل عمي، كان كل ذلك من أجل الجمال النقي، لا لأجل الزراعة، كان عمي يحب فكرة غرس الأشجار ورؤيتها وهي تنمو، وحسب، لا شيء أكثر من ذلك.

إلا أن الأشجار لم تكن لتنمو، وكان ذلك بسبب التربة، حيث كانت صحراوية جافة. أخذ عمي يشير بيده إلى الأفدنة الستمائة والثمانين من الصحراء التي اشتراها، ويقول بأجمل ما يمكن أن يسمعه المرء باللغة الأرمينية: هنا في هذه الأرض القاحلة ستزهر جنة وسيتدفق الماء البارد من الأرض، وستأتي إلى الوجود كل آيات الجمال.

قلت: نعم سيدي.

كنت الأول والوحيد من بين أفراد العائلة الذي رأى الأرض التي اشتراها. وكان يعرف أنني سأتفهم الأمر. وهو ما حدث فعلا. كنت أعرف كما كان يعرف أن ما اشتراه مجرد أرض صحراوية لا قيمة لها. إذ كانت بعيدة جدا عن كل شيء، تقع عند سفح جبال «سيرانيفادا». وكانت مملوءة بكل أنواع النباتات الصحراوية التي

تنبت في الأراضي الحارة الجافة وتجتاحها أنواع من الحيوانات الصغيرة . ولم يكن فضاء هذه الأرض يشهد غير الطيور الجارحة الكبيرة . كانت أرض الوحدة والحقيقة، وكانت تمثل الطبيعة بأشد ما فيها من مظاهر الفخر والجفاف والوحدة والجمال.

نزلنا أنا وعمي مالك من السيارة في وسط قطعة الأرض، وبدأنا نتمشى على أديمها القاحل. وقال عمي: هذه الأرض أرضي.

مشى ببطء على التراب الجاف، وإذا بسحلية تقترب من قدميه؛ فأمسك بكتفي وتوقف عن المشي قائلا: ما هذا الحيوان؟

قلت: نطلق عليها سحالي.

توقفت السحلية على بعد ثلاث أقدام تقريبا، وأدارت رأسها . نظر عمي إلى الحيوان الصغير قائلا: هل هي سامة؟

قلت: أتسأل عن ذلك بغية أكلها، أم خشية أن تلدغك؟

قال عمي: لكلا السببين.

قلت: لا أعتقد أنها تصلح للأكل، لقد سبق أن أمسكت بالكثير منها. وهي تستاء عندما يمسك بها أحد، لكنها لا تؤذي أبدا، هل لي أن أمسك بهذه؟

قال عمي: افعل ذلك أرجوك.

وأمسكت السحلية فيما كان عمي يراقبني وقال: حذار، هل أنت واثق أنها غير سامة؟

قلت: لقد سبق أن أمسكت بكثير منها؟

أخذت السحلية إلى عمي فحاول ألا يظهر خوفه، وقال بصوت مرتجف: إنه كائن صغير لطيف أليس كذلك؟

قلت: أتود أن تمسك بها؟

قال عمي: لا. أمسك بها أنت، لم أقترب هكذا قط من مثل هذا الحيوان. أرى أن لها عينين، وأعتقد أنها تستطيع رؤيتنا.

قلت: أعتقد ذلك، إنها تنظر إليك الآن.

نظر عمي في عيني السحلية مباشرة، وفعلت السحلية الشيء نفسه تجاهه، وظلا مدة نصف دقيقة يتبادلان النظرات. ثم أدارت السحلية رأسها ونظرت إلى الأرض.

قال عمي: أعتقد أن ألفا منها تستطيع قتل إنسان.

قلت: إنها لا تتنقل في مجموعات كبيرة أبدا. فلا تكاد ترى أكثر من واحدة منها

في كل مرة.

فقال عمي: قد تستطيع الضخمة منها قتل إنسان.

قلت: إنها لا تنمو كثيرا حتى تصبح ضخمة، هذا أضخم ما يمكن أن تكون عليه السحالي.

قال عمي: تبدو أعينها كبيرة بالنسبة إلى حجمها. هل أنت متأكد من أنها لا تمانع أن يمسك بها أحد؟

قلت: أعتقد أنها تنسى كل ما حدث لها حين تضعها أرضا.

قال عمي: هل ترى ذلك حقا؟

قلت: لا أعتقد أنها تتذكر الكثير.

قال: ضع الكائن الصغير على الأرض. دعنا نكن لطفاء مع الحيوانات الصغيرة التي خلقها الله. بما أنها غير سامة ولا تنمو أكبر من هذا الحجم، ولا تتنقل في مجموعات كبيرة العدد ولا تتذكر أشياء كثيرة، دعها تعد إلى الأرض. لنكن مهذبين مع هذه الكائنات الصغيرة التي تعيش معنا على الأرض.

قلت : أمرك سيدي.

وضعت السحلية أرضا فقال عمي: لطفا بها. لا تدع مكروها يصيب هذا الحيوان الغريب على أرضي.

انطلقت السحلية بعيدا، فقلت: إن هذه الكائنات الصغيرة تعيش في مثل هذه الأراضي منذ قرون.

قال عمي: منذ قرون؟ هل أنت متأكد من ذلك؟

قلت: لست متأكدا. لكني أظن ذلك، وهي لا تزال هنا على أي حال.

نظر عمي إلى أرضه من حوله، إلى الصبار وغيره من النباتات الصحراوية التي تنمو فيها، وإلى السماء من فوقه. وقال صائحا :ماذا كانت تأكل طيلة هذا الزمن؟

أجبته: لا أدري.

قال: ماذا تظن أنها تأكل؟

أجبت: الحشرات على ما أظن.

قال عمي صائحا: الحشرات؟ أي نوع من الحشرات؟

قلت: ربما الصغيرة فيها. لا أعرف أسماءها. لكن يمكنني معرفة ذلك في المدرسة غدا.

استدرنا وعدنا أدراجنا إلى السيارة.

قال عمي: سأجعل من هذا المكان جنة.

قلت: أجل سيدي.

قال عمي: أعرف مشاكلي، وأعرف كيف أحلها.

قلت: كيف؟

قال عمي: أتقصد السحالي؟

قلت: أقصد المشاكل.

قال عمي: حسن. أول ما سأفعله هو استئجار بعض المكسيكيين للعمل.

قلت: أي عمل؟

قال عمي: لتنظيف الأرض، ثم سأطلب منهم الحفر لاستخراج الماء.

قلت:أين سيحفرون؟

قال عمي: إلى الأسفل مباشرة.وبعد الحصول على الماء،سأطلب منهم تهيئة الأرض.. ثم سأتولى زراعتها.

قلت: ماذا ستزرع؟ القمح؟

صاح عمي: القمح؟ ماذا سأصنع بالقمح؟ إنك تشتري الخبز بخمسة سنتات. من المتجر، سأغرس أشجار الرمان.

قلت: وكم ثمن الرمان؟

قال عمي: يكاد الرمان يكون غير معروف في هذا البلد

قلت: أهذا كل ما ستزرع؟

قال عمي: أفكر في زراعة عدة أنواع أخرى من الأشجار.

قلت: آمل ألا يواجه المكسيكيون أي صعوبات في العثور على الماء. هل يوجد ماء تحت هذه الأرض؟

قال عمي: طبعا. أهم ما علينا فعله هو بدء العمل. إنه الرمان.

أدار عمي محرك السيارة، وانطلقنا من الأرض القاحلة إلى الطريق العام. ومضت السيارة ببطء حتى وصلنا إلى الطريق المعبد. ثم بدأنا نسير بسرعة.

قال عمي: انتبه، عندما نصل إلى المنزل أريدك ألا تتحدث بشيء عن هذه الضيعة إلى العائلة.

قلت له: أمرك سيدي. (وقلت في نفسي: ضيعة؟ أي ضيعة؟)

قال عمي: أريد أن أفاجئهم. أنت تعرف جدتك. سأنفذ ما أخطط له، وعندما يصبح كل شيء على ما يرام، سآخذ العائلة كلها إلى الضيعة لأفاجئهم بها.

قلت: نعم سيدي.

قال عمي: لا تتفوه بكلمة لأي أحد.

قلت: نعم سيدي.

ذهب المكسيكيون إلى العمل ونظفوا الأرض. نظفوا قرابة عشرة أفدنة منها في حوالي شهرين. كانوا سبعة أشخاص لا يفقهون شيئا في أي شيء. وكان الأمر كله يبدو غريبا جدا. لكنهم لم يقولوا ذلك قط. كانت أجورهم تدفع لهم وهو الأمر الوحيد الذي يشغلهم.

لقد اختفى الصبار لمدة قصيرة فقط. إذ سرعان ما امتلأت الأرض التي تم تنظيفها بنباتات الصبار الجديدة النضرة. وقد استغرب عمي ذلك كثيرا.

ناقش عمي كل شيء مع ريان، الذي كان يبيع معدات المزارع، فطلب ريان من عمي ألا يفكر بالجياد، فالعمل في عصرنا هذا يتطلب استعمال جرار جيد في الزراعة، وإنجاز عمل سنة كاملة في يوم واحد. فاشترى عمي جرارا. كان جرارا جميلا. وقام أحد عمال ريان بتدريب دييجو على استخدامه. وفي اليوم التالي، استطعت أنا وعمي بعد وصولنا إلى الحقل رؤية الجرار منطلقا، واستطعنا سماع ضجيجه العالي في صمت الصحراء. وكان عمي يراه رائعا. قال: هذا العصر الجديد هو عصرك. فمنذ عشرة آلاف سنة، كان الأمر يحتاج إلى مائة رجل لينجزوا في أسبوع ما أنجزه هذا الجرار في يوم واحد فقط.

قلت: عشرة آلاف سنة؟ تقصد أمس.

سألني عمي: هل تستطيع أن تصفر؟

قلت: نعم سيدي. أي نوع من الأغاني تود سماعه؟

قال عمي: أي أغان؟لا أريد سماع أغان. أريد منك أن تصفِر لذلك المكسيكي الذي يقود الجرار.

قلت: لمَ؟

قال عمي: لا عليك، صفِّر وحسب. أريده أن يعرف أننا هنا، وأننا مسروران بعمله. قد يكون نظف عشرين فدانا.

قلت: نعم سيدي.

وضعت السبابة والوسطى من كلتا يدي في فمي ونفخت بكل ما أملك من قوة. كان الصوت قويا جدا، لكن يبد أن دييجو لم يسمعه، لأنه كان بعيدا جدا عني.كنا نمشي في اتجاهه على كل حال، أراد عمي أن أصفِّر له. قال: صفِّر مرة ثانية.

فصفرت مرة ثانية. لكن دييجو لم يسمع. قال عمي: صفِّر بصوت أعلى.

صفرت صفيرا قويا جدا، بأقصى ما أستطيع ثم أعلى. فوضع عمي كفيه على أذنيه. أما أنا فقد احمرّ وجهي. وسمع المكسيكي الذي يقود الجرار صافرتي هذه المرة. فأبطأ سرعة الجرار. واستدار به وبدأ يتجه نحونا عبر الحقل.

وصل الجرار والمكسيكي في أقل من دقيقة ونصف الدقيقة. وبدا المكسيكي مسرورا جدا. فنزل من الجرار قائلا: هذا رائع!

قال عمي: أنا مسرور أنه يروق لك.

سأل المكسيكي عمي: هل تود قيادته؟

لم يكن عمي متأكدا من ذلك، فنظر إلي قائلا: هيا. اقفز. قُد الجرار لبعض الوقت.

صعد دييجو على الجرار وساعدني على الصعود. جلس على المقعد ووقفت خلفه لافا ذراعي حوله». وبدأ الجرار يهتز، ثم قفز، ثم بدأ يتحرك. تحرك بسرعة محدثا ضجة عالية. وقاد المكسيكي الجرار على شكل دائرة كبيرة ثم أعاد الجرار إلى حيث كان عمي واقفا. فقفزت خارجا. وقال عمي للمكسيكي: حسن. عد إلى عملك.

لم يحصل عمي على الماء لعدة أشهر. تم حفر عدة آبار في كل مكان في الحقل، لكن قطرة ماء واحدة لم تخرج من الأرض، وجاء أحد خبراء المياه ويدعى روي من تكساس، وقد اصطحب معه أخوين له أصغر منه. وبدأوا يفحصون الأرض. وأخبروا عمي أنهم سيستخرجون له الماء. واستغرق الأمر ثلاثة أشهر حتى استخرجوا الماء، لكن خرج الماء بكمية ضئيلة جدا. وقال الخبير لعمي إن الأمور ستتحسن بمرور الوقت. وعاد إلى تكساس.

أصبح نصف الأرض مهيئا، وتوفر بعض الماء. فحان وقت الزراعة، زرعنا أجود أنواع الرمان وأبهظها ثمنا. غرسنا قرابة سبعمائة شجرة: غرست أنا بنفسي مائة، وغرس عمي قليلا منها. فأصبح لدينا عشرون فدانا من أشجار الرمان في ذلك المكان الغريب البعيد والمنعزل. كان غباء يبدو جميلا جدا، وكان عمي مغرما به. المشكلة الوحيدة هي أن أمواله قد أوشكت على النفاد. وعوض أن يمضي قدما ويحاول إنشاء جنة من تلك الأفدنة الستمائة والثمانين بأسرها، قرر أن يخصص كامل وقته وماله لأجل أشجار الرمان.

قال: سيستمر هذا الأمر إلى أن نبدأ في إرسال الرمان إلى السوق، واسترداد أموالنا.

قلت: أجل سيدي.

لم أكن متأكدا مما قال، لكني حسبت أننا لن نحصل على أي رمان من تلك الشجيرات مدة سنتين أو ثلاث على الأقل. إلا أني لم أقل شيئا. وصرف عمي العمال المكسيكيين. وبدأنا أنا وهو نقوم بكل الأعمال في الحقل. كان لدينا الجرار والأرض. لذلك، كنا نذهب إلى الحقل بالسيارة من آن إلى آخر، ونقود الجرار هناك نقلب الأرض بين أشجار الرمان. واستمر ذلك العمل ثلاث سنوات.

قال عمي: سترى في يوم من الأيام أجمل جنة في العالم في هذه الصحراء.

لم تعد المياه تخرج من الأرض، وبين فترة وأخرى كانت المياه فجأة تخرج قليلا، وعندها كانت السعادة تغمر عمي، ولكن سرعان ما كان الماء يغيض في اليوم التالي مرة أخرى. كانت أشجار الرمان تناضل من أجل الحياة، لكنها لم تحصل على ما يكفي من الماء حتى تثمر.

وأزهرت الأشجار في عامها الرابع. وكان يوما مشهودا بالنسبة إلى عمي. إذ جن جنونه حين رأى الأشجار مزهرة، لكن الأزهار لم تعط كثيرا من الثمار. كانت جميلة جدا. وكان ذلك كل ما في الأمر. كانت جميلة ووحيدة. وجنى عمي في تلك السنة ثلاث رمانات صغيرة.

أكلت إحداها. وأكل عمي الثانية، واحتفظنا بالثالثة في مكتبه.

في السنة التالية بلغت الخامسة عشرة من عمري، وشهدت عدة

أشياء رائعة في حياتي. قرأت كتبا لعدة كتاب متميزين، وأصبحت في طول عمي.

لقد كلفت الضيعة عمي أموالا طائلة، لكنه كان دائما يعتقد أنه سيبدأ قريبا في بيع رمانه في السوق، واسترجاع نقوده، والمضي قدما في خطته لإنشاء جنة في الصحراء.

في ذلك الوقت، لم تكن الأشجار في حالة جيدة. لقد نمت قليلا. لكن بشكل غير ملحوظ. وجف الكثير منها ومات. فقال عمي: لن نغرس المزيد من الأشجار. سنفعل ذلك آجلا في وقت لاحق.

وكان لا يزال يدفع المال ثمنا للأرض.

وفي السنة التالية حصدنا - أنا وعمي - ما يقارب مائتي رمانة، اقتطفناها أنا وهو، كانت كئيبة المنظر إلى حد ما، وضعناها في صناديق جميلة بلغ عددها أحد عشر صندوقا شحنها عمي إلى أحد مراكز التجارة في شيكاغو.

لم يصلنا رد من مركز التجارة طيلة شهر. لذلك أجرى عمي ذات ليلة مكالمة خارجية، فأخبره التاجر - ويدعى دوجوستينو - أن لا أحد يرغب في شراء الرمان.

قال عمي صارخا عبر الهاتف: كم تطلب ثمنا للصندوق الواحد؟

ورد دوجوستينو صارخا: دولارا واحدا.

فصرخ عمي: هذا غير كاف. لن أقبل بأقل من خمسة دولارات للصندوق.

قال دوجوستينو: إنهم لا يريدون شراءها بدولار للصندوق الواحد.

صرخ عمي: لماذا؟

فرد ديجوستينو: لا يعرفون ما هي.

فصرخ عمي: أي رجل أعمال أنت؟ إنه رمان. أريد خمسة دولارات للصندوق.

ورد التاجر: لا أستطيع بيعها. لقد أكلت رمانة منها بنفسي ولم أرَ ما يميزها.

صرخ عمي: إنك لمجنون. ليس هناك ثمرة في الدنيا تضاهي الرمان. إن خمسة دولارات للصندوق هي أقل من نصف الثمن الحقيقي لها.

قال دوجوستينو: وماذا علي أن أفعل بها؟ لا أستطيع بيعها. لا أريدها.

قال عمي بصوت منخفض حزين: حسن. أرجعها. اشحنها إلي.

وكلفت هذه المكالمة عمي قرابة سبعة عشر دولارا. ووصلت إلينا الصناديق الأحد عشر. فأكلنا - أنا وعمي - معظم الرمان.

في السنة التالية عجز عمي عن مواجهة المزيد من مصاريف الأرض. فأحضر الوثائق للرجل الذي باعه الأرض. وكنت يومئذ في المكتب.

قال عمي: ياسيد جريفيث أنا مضطر إلى إعادة أرضك إليك، لكن لدي طلبا صغيرا، لقد زرعت عشرين فدانا من أشجار الرمان. وكم أتمنى أن تسمح لي بأن أعتني بهذه الأشجار.

قال السيد جريفيث: تعتني بها؟ لِمَ؟ من أجل ماذا؟

حاول عمي شرح الأمر لكنه عجز. كان من الصعب محاولة الشرح لرجل لا يعير الأمر اهتماما حقا. وبذلك خسر عمي الأرض والأشجار أيضا.

وبعد حوالي ثلاث سنوات ذهبنا أنا وعمي بالسيارة إلى تلك الأرض، ومشينا بين أشجار الرمان. كانت جميعها ميتة، واكتظت التربة بالصبار، مرة أخرى. وباستثناء ما بقي في المكان من شجيرات الرمان الميتة، كان هذا المكان كما كان عليه طيلة تلك السنين كلها.

تمشينا برهة ثم عدنا أدراجنا إلى السيارة.

ركبنا في السيارة وتوجهنا نحو المدينة.

لم نتفوه بكلمة لأنه كانت هناك أمور كثيرة ينبغي أن نتحدث عنها، إلا أننا لم نملك الكلمات للخوض فيها.

٤- يمكنك القول إنّه أحد شعرائنا في المستقبل

عندما كنت الرابع عشر من بين أفضل خمسة عشر تلميذا في الفصل بمدرسة إيمرسون، خصص مجلس التربية يوما لمناقشة بعض الأمور.

كان ذلك منذ سنين مضت، وكنت حينها في التاسعة من عمري وكنت مهذبا. ولم يكن مجلس التربية في ذلك الحين يعني بأطفال المدن الصغيرة العناية اللازمة.

لكن في بعض الأحيان قام بعض قساوسة الكنيسة المشيخية بفحص حشد من الوجوه الصغيرة وقالوا: «أنتم زعماء أمريكا في المستقبل وقادة الاقتصاد فيها ورجال الدولة شعراؤها المنتظرون». وكان هذا الضرب من الكلام يسرني دوما، لأني كنت أحب أن أرى أي نوع من قادة الاقتصاد المنتظرين سيصبح من أصدقائي من أمثال جيمي فولتا وفرانكي سوزا.

كنت أعرف هؤلاء الفتية. كانوا لاعبي كرة ممتازين. لكن لم أكن أعتقد أنهم سيصبحون قادة في الصناعة، ولم يعتقدوا هم ذلك أيضا. ولو أن أحدا سألهم ماذا يعتزمون فعله مستقبلا لربما قالوا: «لا أدري. لا شيء على ما أظن».

غير أن مجلس التربية لم يكن لديه مثل هذه الآمال الموهومة لدى الأطفال الصغار الذين كانوا يحاولون تعليمهم القراءة والكتابة.

ومع ذلك فقد اجتمع مجلس التربية ذات يوم وتفرغ للبت في بعض الأمور وحسمها بسرعة. وبعد اجتماع استمر سبع ساعات، قرر المجلس أن يخضع كل تلميذ في المدارس الحكومية لفحص صحي، لمعرفة ظروف الأطفال الصغار الذين يعيشون في الأحياءالفقيرة بالمدن.

استنادا إلى السجلات، هناك ست أو سبع مشاكل على الأقل يعاني منها كل الصبيان والبنات الذين عشت بينهم.

لكن المدرسين كانوا يعرفون أننا تقريبا بصحة تامة، وأننا بالتأكيد مزعجون جدا، لابد أن هناك خطأ ما.

وقد قرر مجلس التربية أن يحاول اكتشاف هذا الخطأ. واكتشفوه فعلا. اكتشفوا أن السجلات كانت خاطئة.

وعندئذ لأول مرة علمت - بفرح وغضب - أني كنت شاعرا.

أتذكر نفسي حين كنت في القاعة العامة في مدينتنا عند الظهيرة ومعي آخرين من رجال الدولة المرتقبين وأتذكر سماع اسمي تتلوه الآنسة أوجيلفي بصوت جلي. لقد حان دوري لأصعد سبع عشرة درجة إلى المنصة وأمشي إلى منتصفها وأخلع قميصي وأشهق وأزفر وأخضع لفحص عام.

وعوض أن أرتقي السبع عشرة درجة الى المنصة. قفزت إليها قفزا.

أذكر أن الآنسة أوجيلفي التفتت إلى السيد ريكنبيكر المشرف العام للمدارس الحكومية وقالت بتخوف: هذا هو الجاروجلانياني، يمكنني القول إنه أحد شعرائنا في المستقبل.

ونظرا إلي السيد ريكنبيكر نظرة سريعة وقال: أجل.

خلعت قميصي ووقفت فقالت الآنسة اوجيلفي: أرأيت؟ سيكون كاتبا.
قال لي السيد ريكنبيكر: خذ نفسا.
بدأت في الشهيق وواصلت مدة أربع دقائق. بطبيعة الحال فوجئ أعضاء لجنة الفحص قليلا. وتشاوروا تشاورا سريعا فيما كنت أواصل الشهيق وبعد دقيقتين من الجدال قرروا أن يطلبوا مني الكف عن الشهيق. وقد شرحت لهم الآنسة أوجيلفي إنه ما لم يطلبوا مني التوقف فإني سأواصل الشهيق، على الأرجح، طيلة فترة ما بعد الظهر.
قال السيد ريكنبيكر: هذا يكفي في الوقت الحالي.
قلت: انتهي؟ إني لم أبدأ بعد.
قال: ازفر.
قلت: إلى متى؟
قال السيد ريكنبيكر: يا إلهي!
قالت الآنسة أوجيلفي: من الأفضل لك أن تجيبه. وإلا لم تفعل، سيظل يزفر إلى طيلة فترة ما بعد الظهر.
قال السيد ريكنبيكر: ازفر مدة ثلاث دقائق أو أربع.
فزفرت مدة أربع دقائق. ثم طلبوا مني أن ألبس قميصي وأنصرف.
سألت الأعضاء: كيف تبدو الأمور؟ هل أنا في حالة جيدة؟
قال السيد ريكنبيكر: لنكتف بما قلنا... انصرف من فضلك.
في السنة التالية قرر مجلس التربية إلغاء الفحوص الصحية. فقد كانت الفحوص تسير على ما يرام في ما يخص قادة الاقتصاد ورجال الدولة المنتظرين، لكنها جرت بشكل عشوائي بالنسبة إلى شعراء المستقبل. ولم يعرف أحد ماذا يصنع أو يقترح.

٥- سباق الخمسين ياردة

بعد أن وصلتني تلك الرسالة من نيويورك، حين كنت في الثانية عشرة من عمري، عزمت على أن أصبح أقوى رجل في حيِّنا. كانت الرسالة من صديقي ليونيل سترونجفورت. وقد اقتطعت إعلانه من الجريدة ووقعت عليه وأرسلته إليه بالبريد. فرد علي سريعا برسالة يقول فيها إني بلا ريب رجل ذو عقل خارق للعادة، وإني -بخلاف معظم الناس الآخرين في العالم الذين يبدون في طريقة حديثهم مصابين بمرض المشي خلال النوم وأحلام اليقظة - شخص سيصبح ذات يوم شخصية بارزة.

وكان رأيه في مماثلا لرأيي في نفسي. وإنه لمن دواعي السرور أن يكون الرأي شديد التطابق بين رجل من نيويورك ورجل يمتلك أعظم جسم ممرن في العالم. ووردت في الرسالة صور كثيرة للسيد سترونجفورت وهو شبه عار، كان رجلا ضخما جدا، وقال إنه كان نحيفا ضعيفا. وبدا شخصا قادرا على رفع سيارة فورد عام ١٩٢٠ وقلبها رأسا على عقب.

وقد تشرفت بصداقته.

المشكلة الوحيدة هي أني لم أكن أملك المال اللازم. لقد نسيت قدر المبلغ الذي طلبه في بداية صداقتنا، لكني لم أنس أنه مبلغ طائل. وفي حين كنت ممتنا للسيد سترونجفورت لرأيه في، فإني لم أبد قادرا على إيجاد الكلمات التي أفسر بها عدم توفر المال

لدي، دون أن أبدو أنا نفسي ممن يمشون نائمين أو يحلمون أحلام اليقظة. لذلك؛ في الحين الذي ظللت فيه أنتظر من يوم إلى آخر باحثا عن كلمات لا تسيء إلى صداقتنا، تحدثت إلى عمي جيكو حول المسألة. وكان عمي في ذلك العهد يتعلم اليوغا.

فوجئ عمي بالأمر، لكنه سر أيما سرور. وقال لي إن الطريق إلى العظمة حسب تعاليم اليوغا هي أن تسرح بذهنك في ذاتك، في قوى الحياة الغريبة، تلك التي تكمن في كل إنسان.

قلت له إنه لم يكن بإمكاني أن أصبح الرجل الأقوى الذي قررت أن أكونه منذ أرسلت بعض المال إلى السيد سترونجفورت.

قال عمي: المال! ليس للمال أهمية.

رغم أن عمي جيكو لم يكن رجلا نحيفا ضعيفا. بيد أنه بالتأكيد لا يماثل، ما كان عليه ليونيل سترونجفورت من قوة. وكنت واثقا أن السيد سترونجفورت يمكنه بضربة واحدة أن يقبض على عمي، وأن يجعله إما يستسلم له وإما يقتله. كما أنني كنت من جهة أخرى متعجبا حيث كان عمي أبعد من أن يكون ضخما كالسيد سترونجفورت. لكن السيد سترونجفورت كان أبعد من أن يكون سريع الغضب كعمي. وبدا لي أن السيد سترونجفورت، إن دخل في صراع مع عمي، فسيعاني في أحسن الأحوال من مشاكل جمة، أي من قوى الحياة الغريبة التي طالما كانت تسكن عمي، حتى أن نظرة مفاجئة منه قد ترعب في أحيان كثيرة رجلا ضخما وتصده، أو تلجمه سريعا إن كان يتكلم.

وقبل مدة طويلة من اكتشافي الكلمات التي سأفسر بها للسيد سترونجفورت مسألة المال، وصلتني منه رسالة أخرى. كانت ودية

كالرسالة الأولى، وكانت مشكلة واقعية إن لم تسر الأمور بشكل أفضل قليلا. وشعرت بالسرور وطفت هنا وهناك محررا قوى الحياة الغريبة، قافزا فوق الأشجار، ألف يدا حول يد، ورأسي مكان قدمي، محاولا أن أقلب سيارة فورد العام ١٩٢٠ رأسا على عقب، مزعجا بطرق كثيرة أفراد العائلة والجيران.

ولم يغضب السيد سترونجفورت مني، بل إنه خفض رسوم التدريب. والأدهى من ذلك أن النقود اللازمة مازالت أكبر من أن أستطيع تحصيلها. فأصبحت أبيع الجرائد يوميا. لكننا بحاجة إلى تلك النقود لشراء الخبز. وبدأت لفترة من الزمن أستيقظ كل صباح مبكرا جدا، أجوب المدينة باحثا عن النقود. وفي غضون ستة أيام حصلت على سبعة سنتات.

ووصلت رسالة السيد سترونجفورت الثالثة بعد وصول رسالته الثانية بثلاثة أيام. ومن ذلك الحين أصبحت المراسلة بيننا تتم من طرف واحد. والحقيقة أنني لم أكتب منذ ذلك الحين. كانت رسائل السيد سترونجفورت بالغة التأثير، ولم يكن من اليسير الرد عليها دون نقود. في الواقع، لم يكن لدي تقريبا ما أقوله.

وصلت الرسالة الأولى في موسم هطول الأمطار. في الوقت الذي عزمت فيه أن أصبح أقوى رجل في حينا، وأن أصبح ذات يوم في نظر كل من أعرف أحد أقوى الرجال في العالم. وكانت لدي أفكاري الخاصة، بشأن الوصول إلى ذلك. لكن كانت لدي أيضا الصداقة الحميمة والمنزلة الرفيعة للسيد سترونجفورت النيويوركي. وكان لدى أيضا عمي جيكو.

وظلت الرسائل تردني من السيد سترونجفورت كل يومين أو ثلاثة أيام طيلة فصل الشتاء إلى مجيء فصل الربيع. أذكر جيدا اليوم الربيعي الذي وردتني فيه رسالة لطيفة من صديقي في نيويورك. كانت أغنية لتجدد الأرض، وللربيع زمن القلوب الفتية والقوة النضرة وعدة أشياء أخرى. كانت رسالة جميلة حقا. وكانت الكلمات الأخيرة في هذه الأغنية الرائعة توحي بأمر النقود بكل لطف. أصبح المبلغ المطلوب أقل ست مرات أو سبع مرات مما كان عليه في بداية الأمر. وظهرت فكرة جديدة في مخطط السيد سترونجفورت لتحويلي من شخص نكرة إلى رجل ذي قوة عظمى. وقد قرر السيد سترونجفورت - كما قال - أن يعلمني كل ما يعرف في درس واحد مقابل ثلاثة دولارات. وقال إنه علي فقط إرسال النقود إليه، وأن البقية هي من شأني وشأن التاريخ.

ناقشت الأمر مع عمي جيكو الذي كان في ذلك العهد قد صام عن الأكل في تلك الفترة واستغرق في التفكير العميق، وأخذ يمشي عدة ساعات. تحادثنا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع طيلة فصل الشتاء، وذكر لي بأسلوبه الخاص كل ما كان يتعلمه من اليوغا. ثم قال: اسمع يا آرام، إني قادر على فعل أي شيء. إن هذا لأمر رائع.

صدقته أنا أيضا. رغم أنه فقد كثيرا من وزنه وأصابه الأرق واكتست عيناه بنظرة غريبة.

حدثته عن الرسالة التي وردت إلي من السيد سترونجفورت فقال: النقود! إنه يطلب النقود دوما. أنا لا أحب هذا الرجل.

لقد كان عمي يحصل على تعاليم اليوغا مجانا عن طريق الكتب المتوفرة في المكتبة العامة، لكنه كان يؤمن بأنه اكتسبها من الله من دون وساطة. وكان قبل أن يمارس اليوغا عربيدا وزير نساء، لكنه هجر الخمر والنساء بعد أن بدأ النور يدخل في صدره. مع هذا، فإنه لم يكن معجبا بالسيد سترونجفورت.

قلت لعمي: إنه رجل صالح.

لكن عمي تملكه غضب شديد، فحرر قوى الحياة الغريبة وقال: لأدقن عنقه. إنه يستغفلكم أنتم الأطفال الصغار.

قلت: إنه لا استغفال في ذلك. يقول إنه سيعلمني كل ما يعرف مقابل ثلاثة دولارات،

قال عمي جيكو: يا آرام إنه لا يفقه شيئا. إنه رجل شرير.

قلت: لا أدري. أود اختباره.

قال عمي جيكو: إنه غبي، لكني سأعطيك ثلاثة دولارات.

أعطاني عمي جيكو الدولارات الثلاثة اللازمة، فبعثتها إلى السيد سترونجفورت. فوردتني رسالة من نيويورك مملوءة بدروس السيد سترونجفورت. كانت دروسا سهلة جدا. كانت الفكرة أن أستيقظ في الصباح الباكر وأؤدي بعض التمارين مدة ساعة أو ما يقارب ذلك. وهي تمارين موضحة بصور. كما كان علي شرب الماء واستنشاق الهواء النقي وأكل الطعام الجيد، وأن ألزم ذلك حتى أصبح رجلا قويا.

اتبعت التعليمات مدة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس قررت أن أنام عوض الاستيقاظ وملء المنزل ضجيجا وإغضاب جدتي، التي اعتادت أن تستيقظ في ظلمة الصباح الباكر، وتصيح قائلة

إنني أحمق ولن أصبح غنيا أبدا، وقد تعود للنوم لمدة خمس دقائق، ثم تصيح قائلة: إني لن أجني مالا أبدا بيعا أو شراء. وقد تخلد إلى النوم قليلا مرة أخرى، ثم تستيقظ، فتصيح قائلة إنه كان هناك ثلاثة من أبناء أحد الملوك: كان أحدهم حكيما كأبيه، والآخر مولعا بالفتيات، والثالث له من الإحساس أقل مما للطير، ثم تنهض من السرير وتروي لي وهي تصيح القصة كاملة بينما أؤدي تماريني.

ومفاد القصة عادة أن أكون متزنا طول الوقت، وألا أحدث ضجة فأوقظ الجدة قبل طلوع النهار. كانت تلك هي الفكرة دائما، قد تزيد أو تنقص عن ذلك. علما بأن القصة ذاتها قد تتعلق بثلاثة من أبناء أحد الملوك، أو بثلاثة إخوة، أو بثلاث بنات، أو بثلاثة طرق، أو ما شابه ذلك.

إن جدتي لم تكن في حاجة إلى كل هذا العناء لأني لم أكن أستمتع بالتمارين الصباحية المبكرة أكثر منها. في الواقع، بدأت أشعر أن ما أفعله عبث وأن عمي جيكو كان محقا في المقام الأول. لذا تخليت عن خطة السيد سترونجفورت، وعدت إلى خطتي التي كانت نوعا ما كالتالي: أن آخذ الأمر ببساطة وأكبر حتى أصبح أقوى رجل في الساحة دون أي عناء أو تمرين. وهذا ما فعلته.

قررت مدرسة لونجفيلو في ذلك الربيع تنظيم سباق بين المدارس، وعلى الجميع أن يحضره.

رأيت أنها فرصتي، وأني في رأيي، سأكون الأول في كل سباق، فكرت في الأمر مسبقا، ومليا طوال النهار وطوال الليل، وقد

عدوت بحلول يوم السباق الخمسين ياردة عدة مرات، وقفزت قفزة الوثب الطويل، والوثب المستديم والوثب العالي ما جعل الأولاد الآخرين مندهشين.

ولقد تحولت هذه القوة الكامنة الكبيرة - التي كانت في حقيقة الأمر هي اليوغا - يوم السباق إلى ما يشبه الجنون.

ثم حان الوقت أخيرا لي ولثلاثة آخرين أن نتخذ مواقعنا ونستعد وننطلق، وهذا ما فعلته في اندفاع أعمى أدركت أنه لم يحدث له مثيل.

بدا لي أنه لم يتحرك أحد قط من قبل تلك السرعة التي عدوت بها. لقد جريت في أعماق نفسي الخمسين ياردة خمسين مرة قبل أن أفتح عيني لأكتشف على أي مسافة خلفت بقية العدائين من ورائي، ولقد راعني ما رأيت: كان هناك ثلاثة أولاد يسبقونني مسافة أربع ياردات.

كان أمرا لا يصدق. لكنها كانت الحقيقة. لا بد من أن هناك خطأ ما، لكن لم يكن هناك أي خطأ. كانوا هناك ينطلقون في المقدمة.

حسن. هذا يعني ببساطة أنه كان علي أن أتجاوزهم بعينين مفتوحتين. لكنهم واصلوا التقدم بطريقة لا تصدق. فقررت تحرير قوى الحياة الغريبة في داخلي. غير أن ذلك لم يجد بطريقة أو بأخرى كي ألحق بهم.

وبثثت مرة أخرى الحياة الفتية والقوة في عدوي. لم تبق مسافة طويلة للعدو، لكني كنت أعلم أني قادر على تحقيق الفوز، ثم أدركت أني لن أستطيع ذلك، لقد انتهى السباق، وكنت الأخير

على مسافة عشر ياردات، وتكرر الشيء نفسه بالضبط إلى حد كبير في بقية سباقات ذلك اليوم.

عندما عدت إلى البيت كنت غاضبا جدا. وظللت مريضا مدة ثلاثة أيام. فأولتني جدتي عناية فائقة. ولعله السبب الذي أنجاني من الموت. وحين عادني عمي جيكو، لم يعد نحيف الوجه، ويبدو أنه تخلى عن البقاء دون طعام بعد أن نجح في ذلك أربعين يوما أو ما يقارب ذلك، وأربعين ليلة على ما أظن.

وقد كف عن الاستغراق في التفكير العميق لأن لديه الآن كل الأفكار العظيمة، وعاد مرة أخرى إلى معاقرة الخمر والسهر وملاحقة النساء، وقال لي: يا آرام إننا عائلة عظيمة، فنحن قادرون على فعل أي شيء.

٦ - قصة غرامية جميلة من الطراز القديم مع قصائد الحب وما إلى ذلك

كان ابن عمي أراك أصغر مني بسنة ونصف السنة. كان أسمر مستدير الوجه، وكان مؤدبا بشكل غير عادي، كانت سلوكياته طبيعية بقدر ما كانت سلوكياتي سيئة منذ البداية. حيثما يثير أراك أي نوع من المشاكل في المدرسة؛ فإن ابتسامته اللطيفة تبعث الدفء في قلب مدرستنا الآنسة دافني، وأتورط أنا في المشكلة وأثبت بضجة أن الآنسة دافني، أو أي شخص آخر، وراء المشكلة.

وعادة ما أرسَل إلى إدارة المدرسة، فأنال في بعض الأحيان الضرب من ديرنجر ناظر المدرسة.

كان أراك مختلفا عني. فهو لا يهتم بالمشاجرة، ولم يكن - على كل حال - قريبا مني في الذكاء. ولكن رغم أنه أصغر مني بعام ونصف العام، فإنه كان يدرس معي في الفصل نفسه. وليس ذلك بالأمر المخزي، لو لم يكن الفصل هو السنة الخامسة. ولقد كنت أنتصر دوما في المعارك التي أخوضها ضد مدرسيّ. لكن عوض أن يسعدوا بنجاحي، كانوا لا يودون ذلك - كما أعتقد - آملين أن يكسبوا المعركة في السنة التالية ونصبح بذلك متعادلين. وهذا ما يفسر كوني أكبر التلاميذ سنا في الصف الخامس.

وذات يوم حاولت الآنسة دافني أن تقنع الجميع بأني كتبت على السبورة قصيدة تفيد أنها تحب السيد ديرنجر. وكان ابن عمي أراك

هو الذي كتب القصيدة، ولست أنا. وما كتبت من قصائد لا علاقة له بالآنسة دافني، بل عن أشياء تستحق الكتابة. ومع ذلك وقفت الآنسة دافني بجانب مقعدي وقالت دون أن تذكر أي اسم: سأكتشف من كتب هذه القصيدة على السبورة، وسوف يعاقب على فعلته.

قلت: هو؟ كيف عرفت أنه فتى وليست فتاة؟ فقفزت خارج مقعدي.

قالت الآنسة دافني: اجلس.

فجلست. وأمسكتني من أذني اليمنى، التي تبدل شكلها لكثرة ما أمسكت بها الآنسة دافني وبقية المدرسين.

جلست وأنا أقول بهدوء كأني أحدث نفسي: ستتحققين من ذلك.

فقالت الآنسة دافني: أمسك لسانك.

فأخرجت لساني وأمسكت به، في حين انفجر المكسيكي الصغير والأرميني وكل التلاميذ الأمريكيين فتية وفتيات ضاحكين.

قالت الآنسة دافني: كن مؤدبا الآن. لن أحتمل أكثر من هذا. كن مؤدبا.

سرحت لساني من يدي وبدأت أتصرف بأدب. وابتسمت كشاب يهديها تفاحة حمراء. فانفجر الفتية والفتيات ضاحكين. وبدأت الآنسة دافني تطاردني داخل القاعة.

قلت لنفسي والآنسة دافني تطاردني داخل القاعة: هأنذا أعود مرة أخرى، إني أقع مرة أخرى في ورطة، في حين يجلس ابن عمي آراك هناك مبتسما. وهو السبب في كل ما حدث.

ثم عدت إلى مقعدي بعد أن عجزت الآنسة دافني عن مواصلة

المطاردة. وطُرِحَ السؤال المهم في ذلك اليوم مرة أخرى: من كتب القصيدة العاطفية على السبورة؟

استعادت الآنسة دافني قواها وبدأت تتكلم: سأسأل كل واحد منكم بالاسم عما إذا كان كتب هذه القصيدة على السبورة، وأتوقع منكم قول الحقيقة. وإن كذبتم فسأكتشف ذلك على كل حال. وسيكون حسابكم عسيرا جدا.

وبدأت تسأل كل فتى وفتاة إن كانوا كتبوا القصيدة. وهم لم يفعلوا ذلك طبعا. ثم سألت ابن عمي أراك فأنكر هو أيضا. ثم سألتني. فقلت إني لم أفعل. وتلك هي الحقيقة. فقالت: اذهب إلى مكتب الناظر.

قلت: إني لم أكتب أي قصيدة على أي سبورة.

تلقاني السيد ديرنجر عابسا. ثم وصلت سوزي كوكوموتو بعد دقيقتين من فصلنا حاملة معها ورقة بشأن ما فعلت. قرأ السيد ديرنجر تلك المذكرة وتغيرت ملامح وجهه ست مرات أو سبعا. ثم ابتسم وقال: ما الذي دفعك إلى كتابة هذه القصيدة القصيرة؟

قلت: أنا لم أكتبها.

قال: بالطبع ستقول إنك لم تكتبها، لكن لم كتبتها؟

قلت: لم أكتبها.

قال السيد ديرنجر: كيف عرفت أن الآنسة دافني تحبني؟

قلت: وهل تحبك حقا؟

قال السيد ديرنجر: حسن. هذا ما ذكر هنا. كيف خطرت لك تلك الفكرة؟ هل لاحظت أن نظراتها إلي نظرات وَلَهٍ أو ما شابه ذلك؟

قلت: لم ألاحظها تنظر إليك أي نوع من النظرات. هل أنت مغرم بها أم ماذا؟

قال السيد ديرنجر: هذا ما بقي علينا معرفته. إنها ليست قصيدة سيئة إلى حد ما.

قلت: أنا لم أكتب القصيدة. يمكنني إثبات ذلك. أنا لا أكتب بتلك الطريقة.

قال السيد ديرنجر: أتقصد أن خط يدك مختلف عن الخط الموجود على السبورة؟

قلت: نعم. كما أني لا أكتب ذلك النوع من الشعر.

قال السيد ديرنجر: أتقر بأنك تكتب الشعر؟

قلت: أنا أكتب الشعر. لكني لا أكتب مثل ذلك النوع من الشعر.

قال السيد ديرنجر: من المحتمل أن تكون كتبت تلك القصيدة.

قلت: لم أكتب هذه بالذات. من المحتمل أن أكون قد كتبت قصيدة جيدة.

قال السيد ديرنجر: ماذا تعني بقولك «جيدة»؟ أتعني «جميلة»؟

قلت: أعني جميلة، شرط ألا تكون عن الآنسة دافني.

قال السيد ديرنجر: لقد كنت حتى هذه اللحظة أشك في من كتب تلك القصيدة ولم أعد كذلك. أنا أعلم أنك كتبتها. لذلك علي أن أعاقبك.

فوقفت وبدأت بالكلام.

قلت: ستضربني لذنب لم أقترفه، وسوف تتحقق من ذلك!

ضربني وعلمت المدرسة كلها بذلك. وعدت إلى الفصل متظاهرا بأنه كسر ساقي. لم تعد القصيدة مكتوبة على السبورة.

وأصبح كل شيء على ما يرام مرة أخرى. فقد عوقب كاتب القصيدة عقابا عادلا، وعاد النظام مرة أخرى إلى الصف الخامس. وكان ابن عمي أراك يجلس هادئا ينظر نظرات ولهى إلى شعر أليس بوفارد البني.

لكن كانت هناك قصيدة أخرى على السبورة في صباح اليوم التالي مكتوبة بخط ابن عمي أراك، وأرادت الآنسة دافني مرة أخرى معرفة من كتبها ومعاقبته. وعندما دخلت الفصل، رأيت القصيدة وبدأت في الاحتجاج على الفور، فلقد تمادى ابن عمي أراك. أخذت أزمجر بالأرمينية بألفاظ نابية تجاهه، فتظاهر بأنه لم يسمعها. وظنت الآنسة دافني أني أقصدها هي، فقالت: اسمع! إن كان لديك ما تقوله فتكلم بلغة يفهمها الجميع.

قلت: كل ما لدى قوله هو أني لم أكتب هذه القصيدة. ولم أكتب قصيدة الأمس أيضا. إن كنت سأقع في مشاكل أخرى بسبب هذه القصائد، فسوف يتحقق البعض من ذلك.

فقالت الآنسة دافني: اجلس.

كتبت صفحة كاملة تضمنت القصيدة الجديدة، وأمرتني أن آخذها إلى مكتب الناظر. فقلت: لمَ أنا بالذات؟ أنا لم أكتب هذه القصيدة!

قالت الآنسة دافني: افعل ما أمرتك به.

وقال لي السيد ديرنجر عندما دخلت مكتبه: ما خطبك؟ اقترب لأطلع على هذه المذكرة. ما الذي أتى بك الآن؟

أخذ مني المذكرة وقرأها بتأن شديد. قرأها ثلاث مرات أو أربعا. وبدا مبتهجا. وأعتقد أنه كان عاشقا. التفت إلي وعلى

محياه ابتسامة عريضة. فقلت له: أنا لم أكتب هذه القصيدة. ولم أكتب قصيدة الأمس أيضا. كل ما أريده هو أن أحظى بقدر من التعليم، وأعيش وأدع غيري يعيش.

قال السيد ديرنجر: الخلاصة، الخلاصة.

لقد كان مسرورا تماما.

قلت: إن كنت عاشقا لها، فهذا شأنك، لكن لا تحشرني في هذه المسألة.

قال السيد ديرنجر: ما أود أن أقوله لك إنه يجب أن تكون لطيفا قليلا. وبالطبع سوف أعاقبك.

هتفت قائلا: أوه. لا. إن عاقبتني فسوف يأتيك الخبر.

قال السيد ديرنجر: لكن ماذا عن قصيدة اليوم؟ علي أن أعاقبك عليها، أما قصيدة الغد فتلك حكاية أخرى.

قلت: لا. لا فائدة.

قال السيد ديرنجر: حسن.

قلت: هل يمكنني الانصراف الآن؟

قال: نعم. نعم. دعني أفكر في هذا الأمر.

وهممت بمغادرة المكتب. فقال: انتظر لحظة. سيدرك الجميع - بطريقة ما - أن ثمة أمرا مريبا، إلا إذا سمعوا عويلك. فالأفضل أن تعود إلى هنا وتصرخ بصوت مرتفع عشر مرات. ثم تنصرف.

قلت: أصرخ؟ لا أستطيع الصراخ دون أن أشعر بألم.

قال السيد ديرنجر: أوه. إنك تستطيع بكل تأكيد. ما عليك إلا أن تطلق صرخة ألم عظيمة. يمكنك فعل ذلك.

قلت: لا أظن أنني أستطيع ذلك.

قال السيد ديرنجر: سأضرب هذا الكرسي عشر مرات، وتصرخ أنت بصوت مرتفع.

قلت: أتظن أن ذلك سينطلي عليهم؟

قال: سينطلي طبعا. هيا.

وضرب السيد ديرنجر الكرسي. وحاولت الصراخ عاليا كما صرخت بالأمس، لكن الصرخة لم تبدُ حقيقية. كانت تبدو زائفة على نحو ما. وواصلنا ذلك حتى دخلت الآنسة دافني نفسها إلى المكتب. ولم ننتبه إلى دخولها بسبب الضجة.

مع الضربة العاشرة التفت إلى السيد ديرنجر وقلت: إنها الضربة العاشرة.

عندئذ رأيت الآنسة دافني واقفة هناك فاغرة فاها. وقال السيد ديرنجر: لنزد قليلا يا بني، ليكون الحساب سليما.

وقبل أن أتمكن من تنبيهه إلى وجود الآنسة دافني في المكتب، أخذ يضرب الكرسي مرة أخرى وأنا أصرخ صرخات عالية.

ثم التفت السيد ديرنجر فرآها. رأى حبيبته.

لم تتفوه الآنسة دافني بكلمة واحدة، إذ عجزت عن ذلك. أما السيد ديرنجر فقد ابتسم لقد بدا أحمق. ولم يدرِ ماذا يفعل. وقال: إنني أعاقب الولد.

قالت الآنسة دافني: أفهم ذلك.

وهي لم تفهم شيئا. ليس تماما على كل حال.

وقال السيد ديرنجر: لن أسمح بوجود أي طفل في هذه المدرسة يتصرف بهذا السلوك السيئ.

كان مجنونا بحبها، وأخذ يؤرجح ذراعيه محاولا إثبات شيء ما، لكن الآنسة دافني لم تأبه كثيرا بمعاقبة طفل بضرب كرسي، في حين يطلق الطفل صرخات عالية: كان الرجل والطفل يسخران من حب صادق. ونظرت إليه ببرود شديد.

فقال السيد ديرنجر: هل تعنين ضرب الكرسي؟ لقد كنا نجرب العقاب الحقيقي. أليس كذلك يا بني.

قلت: لا . لم نكن نجرب.

واستدارت الآنسة دافني ومضت تجري. وجلس السيد ديرنجر وقال: والآن. انظر ماذا فعلت.

قلت: حسن. إن كنت ستقيم علاقة غرامية معها، فافعل، لكن لا تحشرني في ذلك.

قال السيد ديرنجر: حسن. أظن أن هذا هو ما يجب أن يكون.

كان رجلا تعيسا جدا.

قال: حسن جدا. عد إلى فصلك.

قلت: أريدك أن تعرف أني لم أكتب أيا من القصيدتين.

قال السيد ديرنجر: لا أهمية لذلك.

قلت: ظننت أنك ربما تريد أن تعرف.

قال: لقد فات الأوان. إنها لن تفكر أنني رجل بمعنى الكلمة بعد ما حدث.

قلت: لِمَ لا تكتب لها قصيدة بنفسك؟

قال السيد ديرنجر: لا أستطيع كتابة الشعر.

قلت: حسن. حاول أن تجد حلا بطريقة ما.

عندما عدت إلى الفصل. كانت الآنسة دافني شديدة اللطف.

وكذلك كنت أنا. علمت أنني أعرف. وعلمت أنها إذا ضايقتني فإنه بإمكاني أن أنهي القصة الغرامية أو أجعلها تتزوجه. لذلك كانت لطيفة جدا معي. وفي غضون أسبوعين أغلقت المدرسة أبوابها. وعندما فتحت من جديد لم تظهر الآنسة دافني. فإما أن السيد ديرنجر لم يكتب لها قصيدة، وإما أنه كتبها لكنها لم تكن جيدة، وإما أنه لم يصارحها بحبه، أو صارحها فلم تأبه به، وإما أنه خطبها فخذلته، وانتقلت إلى مدرسة أخرى، لأني كنت أعرف ما حدث، حتى تهون على قلبها المحطم. أو شيء من هذا القبيل.

٧- ابن عمي ديكران - الخطيب

منذ عشرين عاما كان الأرمن في وادي سان جواكان يرون الخطابة أعظم الفنون وأسماها وأهمها. ويمكن القول إنها كانت الفن الوحيد. وكان كل أصحاب ضيعات الكروم - تقريبا - حول مدينة فريسنو يعتقدون أن كل من يستطيع إلقاء خطبة هو شخص مثقف. وأعتقد الآن بعد كل هذه السنين أنهم محقون، لأن أصحاب ضيعات الكروم أنفسهم كانوا من الضعف في إنشاء الخطب، بحيث ظنوا أن من الرائع أن يرفع جمهور الخطباء أصواتهم بصوت هادئ، ثم بزمجرة تجعل الفلاحين ينحنون إلى أقدامهم، ويدركون أن المتحدث رجل مثقف. فيقول الفلاحون في أنفسهم: يالها من زمجرة رائعة.

كان الفلاحون يلتقون في إحدى الكنائس الثلاث، يذرفون دموعهم ويفرغون ما في نفوسهم ويتجاوزون الموقف لحظة، وينفقون من النقود ما استطاعوا. أحيانا، حين تجمع النقود لأحد الأصدقاء المقربين مثلا، يقف الفلاحون عند دفع النقود ويقولون رافعين أصواتهم: «مغردِش القصبي وزوجته أراكسي وأبناؤه الثلاثة: غوركان وسيراك وتومان! خمسون سنتا!».

يحاول الفلاحون على هذا النحو من الكلام أثناء التبرع بالمال أن يتفوق أحدهم على الآخر. فإذا لم ينهض أحد الفلاحين أمام الملأ ولم يدفع الهبة كما يفعل الرجل، فيا لخيبته! لا نقود ولا القلب الذي يقوى على النهوض دون خوف! لذا يظل الفلاح غير

القادر على التبرع بالمال (وإن كان يود حقا المساعدة) كئيبا عاما بعد عام. ثم ينهض على قدميه أخيرا عندما تتحسن الظروف، وينظر حواليه كالمجنون ويصرخ: «لقد ولت أيام الفقر في هذه العائلة التي تنتمي إلى مدينة ديكرانا جيرت الجميلة. الإخوة البامبلونيون الخمسة. خمسة وعشرون سنتا !» ويعود إلى بيته شامخ الرأس وبمعنويات مرتفعة. هل كان فقيرا؟ في الأيام الغابرة، نعم. لكنه لم يعد كذلك الآن. (وينظر الرجال الخمسة ضخام الهيئة بعضهم إلى بعض بمشاعر عائلية، ممسكين أبناءهم أمامهم بمحبة طبعا. إن هذا الشعور الغريب المنتمي إلى الشرق الأدنى هو نتيجة سعادتهم بأنهم لم يعودا صغارا في عيني أي رجل من البلد).

لا يعد الفلاح منتجا ما لم ينهض ابنه... ابنه في المدرسة أو في ملتقى بالكنيسة أو في أي مكان آخر، ويلقي خطبة. إذ يخاطب الفلاح أباه ذا الأعوام الثمانية والثمانين عاما بصوت عال قائلا: الولد؟ أصغ إليه! إنه فاهان. ابني، حفيدك ذو الحادية عشرة. إنه يتحدث عن أوروبا.

فيهز الجد رأسه مندهشا مما يحدث من ابن الحادية عشرة، بالغ الحكمة، يتحدث عن أوروبا. والرجل العجوز في الواقع لا يعرف أين تقع أوروبا بالضبط، رغم أنه يعلم أنه مر بها في طريقه إلى أمريكا. «يغروبا». أوروبا. لكن لماذا يثار الحديث عن أوروبا فجأة حتى يتحدث الصبي عنها؟

وتغمر النساء الفرحة، وتعجب الأمهات بأنفسهن. يتبادلن النظرات وهن يهززن رؤوسهن. وبعد عشر دقائق من حديث

الصبي بالإنجليزية التي لا يفهمنها، يذرفن دموعا لطيفة هادئة، لأن الأمر كله كان رائعا جدا. «إن بيرجي الصغير، الذي كان بالأمس فقط رضيعا لا يحسن نطق كلمتين باللغة الأرمينية، فضلا عن الإنجليزية، يتحدث، ملوحا بذراعيه، مشيرا بإصبعه إلى الأعلى تارة وإلى الغرب تارة أخرى، إلى الجنوب وإلى الشمال، وإلى قلبه من حين إلى آخر».

ولم يكن مفاجئا - في مثل هذه الظروف - أن يظهر في الجاروجلانيانيين هم أيضا خطيب. حتى إن كان الرجل المسن يرى في الخطباء أشخاصا حمقى. إذ قال: «إذا رأيت رجلا صغير البنية يتخذ نظارة على وجهه وهو يزعق، فاعلم إن ذلك الرجل أحمق أو كذاب».

كان دوما لا يطمئن إلى أي نوع من أنواع الكلام، إلا ما كان صريحا ذا معنى. كان يريد معرفة ما لا يعرف، وحسب. لا يريد الكلام لمجرد الكلام. وقد اعتاد أن يحضر كل اللقاءات العامة، لكنها لم تفشل قط في إثارة سخطه. ويلاحظ كل خطيب وجه الرجل العجوز ليتبين إلى أي درجة يبدو ممتعضا. وحين يرون شفتيه تتحركان ببطء كانوا يصمتون ويحاولون التحدث بعقلانية. وإذا كانوا قد تحدثوا إليه سابقا وتبينوا موقفه منهم، حاولوا التفاهم معه بالزعيق بصوت أعلى من ذي قبل. ومن حين إلى آخر يقول أحدهم: «نحن نعرف أن ثمة من بيننا من يسخر منا، بل ويعدنا مجانين. لكن كان هذا دوما الصليب الذي تعين علينا حمله. ولسوف نحمله».

عندئذ يضع الرجل العجوز يده على رؤوس أبنائه، ويضع هؤلاء بدورهم أيديهم على رؤوس أبنائهم. ويلمس هؤلاء بعضهم بعضا،

وتنظر النساء حولهن. ويقف الجاروجلانيانيون معا، وعددهم سبعة وثلاثون أو ثمانية وثلاثون، وينصرفون في الوقت الذي ينظر فيه الرجل العجوز إلى الفلاحين الفقراء بغضب قائلا: «إنهم يحملون الصليب مرة أخرى. فلننصرف».

ومع هذا أرى أنه كان على العائلة الجاروجلانيانية بطريقة ما أن تنتج خطيبا. كانت إرادة الشعب، ومن الطبيعي أن يرى أحد أفراد العائلة الجاروجلانيانية أنه من الضروري أن يخوض هذا الميدان كي يري الجميع حقيقة الخطابة، بل ما كانت عليه في الواقع، إذا ظهرت الحقيقة.

وتبين أن هذا الجاروجلانياني هو ابن عمي الصغير ديكران، وهو الابن الثاني لعمي زوراب، الذي كان في التاسعة من عمره حين انتهت الحرب، كان أصغر مني بسنة. لكنه أقل حجما مني بكثير. لدرجة أني لا أهتم بملاحظته.

كان منذ البداية أحد الأولاد المتميزين الذين لديهم نسبة حقيقية ضئيلة من الفهم. إنهم لا يضحكون على الإطلاق، ويعتقدون أن كل المعرفة تتأتى من الخارج. وقد حصل الجاروجلانيانيون لمئات من السنين على حكمتهم بشكل طبيعي، من ذواتهم، ويروى عن الرجل العجوز أن أي جاروجلانياني أصيل يمكنه تحديد قيمة أي شخص من نظرة واحدة، ولديه الحدس الذي يمكنه من معرفة كيفية التعامل مع ذلك الشخص.

وكان العجوز يقول: إذا رأيت رجلا ليس فيه إلا وجه متجهم. فاعلم أن ذلك الرجل لا قيمة له. وإذا رأيت -من جهة أخرى- رجلا تقول لك عيناه: «يا أخي- إني أخوك» فاحذر. فذاك الرجل قاتل.

كان من الطبيعي لجاروجلانياني نشأ على هذه الطريقة، منذ كان رضيعا، أن يصبح حكيما بأمور العالم وأناسه الغرباء. لكن الجاروجلانياني الوحيد الذي لم يستطع التعلم هو ابن عمي ديكران هذا. لم يكن سوى قارئ كتب. وهو الصنف الذي كان «الشيخ» يمقته مقتا شديدا، إلا إذا رأى تحسنا ملحوظا في شخصية القارئ، الذي من الضروري أن يكون صبيا، إذ من غيره يمكن أن يقرأ كتابا؟ وفيما يتعلق بديكران، فلم يرَ العجوز أي تحسن، بل على العكس، كان هناك تردٍ مستمر، حتى قيل للرجل العجوز أخيرا، عندما أصبح الصبي في الحادية عشرة من العمر، إن ديكران هو أذكى ولد في مدرسة لونجفيلو، وهو موضع فخر مدرسيه وإنه متحدث بارع.

عندما أخبرت أم الصبي الرجل العجوز بذلك، صاح قائلا: وأسفاه! يا للخسارة!. ماذا تطعمون الصبي؟ قالت الأم: ماذا في الأمر؟ إنه أذكى صبي في المدرسة كلها.

قال «الشيخ»: إذا سمعت عن صبي في الحادية عشرة أنه أذكى ولد في مدرسة تتكون من خمسمائة صبي، فلا تعيري ذلك اهتماما. فيمَ تميز؟ أليس هو في الحادية عشرة؟ من ينتظر من صبي أن يكسب كل هذا الصيت؟ علي أن أخبرك بأنك أم مسكينة. ادفعي الصبي المسكين خارج المنزل إلى الحقول. دعيه يلاعب أبناء عمومته. إن هذا الطفل المسكين لا يعرف حتى كيف يضحك. وهأنت تأتين إلى هنا في هذه الظهيرة لتقولي لي إنه فطن ومميز. حسن. انصرفي.

لكن الصبي مضى -على أي حال- مضى قدما خطوة خطوة، يقلب صفحات الكتب ليل نهار، حتى تعين عليه في نهاية المطاف وبصفة عاجلة أن يضع نظارة على وجهه، ما جعله يبدو أكثر كآبة، حتى أنه كلما اجتمعت العائلة نظر الرجل العجوز من حوله، فيرى الصبي فيصيح به: يا قارئ الكتب! أقبل.

فينهض الصبي ويقف أمام «الشيخ» فيقول له: حسن أنت تقرأ الكتب، هذا جيد. لقد بلغت الآن الحادية عشرة. أخبرني: ماذا تعرف؟ ماذا تعلمت؟

فيقول الصبي: لا أستطيع التعبير عن ذلك بالأرمينية.

فيقول «الشيخ»: هكذا إذن. حسن. تحدث بالإنجليزية.

عندئذ يخرج كل شيء عن السيطرة بطريقة جميلة. فيبدأ فعلا ابن عمي الصغير هذا، ذو الحادية عشرة، في إلقاء خطبة عن كل الأشياء الرائعة التي اكتشفها من الكتب. ولقد كانت أشياء رائعة حقا. كان يحفظ كل التواريخ، وكل الأسباب، وكل الأسماء، وكل الأماكن، وما يمكن أن تؤول إليه الأمور.

كان أمرا رائعا جدا بطريقة موجزة حزينة.

ويقاطع الرجل العجوز الصبي فجأة صائحا: ما أنت؟ طائر متكلم؟

مع هذا، فقد بدا لي أن «الشيخ» أعجب بهذا الجاروجلانياني الغريب من بين بقية الجاروجلانيانيين. كان قراء الكتب معتوهين، وكذلك كان الخطباء. لكن قارئنا وخطيبنا لم يكن بأي معيار وبأي حال من الأحوال أحد قراء الكتب أو الخطباء اليوميين. لقد كان متميزا. فقد كان من جانب أصغر سنا من أولئك الذين يظنون

أنهم تعلموا عدة أشياء من الكتب. وكان من جانب آخر يتكلم بفصاحة أكبر بكثير من غيره.

لهذين السببين، ولأن الصبي على أي حال كان يتبع أسلوبه الخاص، قبلناه جميعا قارئا للكتب وخطيبا للجاروجلانيانيين، وتركناه يمضي قدما كما يشاء.

وفي عام ١٩٢٠، نظمت مدرسة لونجفيلو أمسية خاصة اشتملت على هذه الفقرات:

(١) الغناء.

(٢) إحدى مسرحيات شكسبير.

(٣) خطبة لديكران الجاروجلانياني. بعنوان: «هل كان الصراع في الحرب العالمية دون جدوى؟».

جلس الجاروجلانيانيون في الموعد المحدد على مقاعد المستمعين. ثم استمعوا إلى الغناء السيئ، وشاهدوا المسرحية الرديئة التمثيل، ثم استمعوا إلى الجاروجلانياني الوحيد الأوحد ديكران، الابن الثاني لزوراب.

كانت الخطبة رائعة، كان الإلقاء جيدا والكلمات صائبة. ومفاد الخطبة أن الحرب العالمية لم تخض باطلا. لقد استحسنها كل من كان في الصالة. فصفق الجميع بقوة. لكن ذلك كان مبالغا فيه، أقصد بالنسبة إلى الرجل العجوز. فقد أثار الأمر ضحكه. كانت الخطبة رائعة حقا، على نحو ما. كانت الأفضل من نوعها على الأقل، حتى إن لم تكن من محبي الخطب.

في ذلك المساء نادى «الشيخ» الصبي في المنزل، وقال له: لقد استمعت إلى خطبتك. كانت جيدة. لقد تحدثت عن حرب قتل

فيها عدة ملايين من البشر، أفهم أن أثبت أن الحرب لم تخض عبثا. وعلي أن أقول لك إني مبتهج إلى حد ما. إن تلك الكلمات الكبيرة والجميلة يجب ألا تصدر إلا من شفتي صبي في الحادية عشرة، من شخص يعتقد أن ما يقوله صواب. ولو صدرت هذه الكلمات من رجل راشد فلن أتحملها. واصل دراستك للعالم من خلال الكتب. وأنا واثق من أنك إن عملت بجد وتفتحت عيناك، ستدرك ببلوغك السابعة والستين من العمر تفاهة تلك الكلمات التي قلتها أنت نفسك هذه الليلة، بهذا السيل الصافي من اللغة الإنجليزية التي نطق بها صوتك الفتي. إني - بطريقة ما - فخور بك فخري بأي فرد من أفراد هذه العائلة. يمكنكم الانصراف جميعا الآن. أريد أن أخلد إلى النوم. أنا لست في الحادية عشرة. إني في السابعة والستين من العمر.

نهض الجميع وانصرفوا، ماعداي. فقد بقيت مدة طويلة كانت كافية لأرى «الشيخ» وهو يخلع حذاءه، وأسمعه يقول لنفسه برقة: يا لهؤلاء الأطفال الرائعين المجانين في هذا العالم الرائع المجنون.

٨- منشدو الجوقة المشيخية

من الأشياء الغريبة والبهيجة الكثيرة في بلدنا سهولة التحول لدى أهلنا الطيبين من ديانة إلى أخرى، أو من عدم اعتناق أي ديانة بعينها إلى اعتناق ديانة بارزة، دون الشعور بأي خسارة أو فائدة.

ولقد ولدت أنا نفسي - على سبيل المثال - كاثوليكيا، رغم أني لم أعمد حتى بلغت الثالثة عشرة من عمري. وأذكر جيدا أن هذا قد جعل القس شديد الغضب ووصفهم بالمجانين، وهو ما رد عليه أهلي بأنهم لم يكونوا في البلد...

صرخ القس قائلا: لقد بلغ ثلاث عشرة سنة ولما يعمد! أي نوع من البشر أنتم؟

أجابه عمي مالك: في الغالب نحن أناس فلاحون، ولكن لدينا رجال حكماء أيضا.

كان عصر يوم سبت. ولم تأخذ المسألة برمتها أكثر من سبع دقائق. ولكن حتى بعد أن عمدت لم أشعر بأي تغيير على الإطلاق.

وقالت جدتي: حسن. لقد عمدت الآن. هل تشعر بأي تحسن؟

قلت: أعتقد أني لم أتغير.

صاحت قائلة: هل أصبحت مؤمنا؟ أم مازلت تساورك الشكوك؟

قلت: يمكنني أن أقول بيسر إني مؤمن. لكن بأمانة، لست واثقا من ذلك. أريد أن أصبح مسيحيا طبعا.

قالت جدتي: حسن. ما عليك إلا أن تؤمن وأن تنصرف إلى عملك.

كان عملي غريبا في بعض جوانبه وليس بالإمكان فهمه في بعض جوانبه الأخرى.

كنت أنشد في جوقة الفتيان بالكنيسة المشيخية بشارع تولار. وكنت أحصل في المقابل على دولار كل أسبوع من سيدة مسيحية عجوز تدعى باليفال كانت تعيش في كآبة بمفردها في منزل صغير تغطيه الكروم بالقرب من المنزل الذي كان يعيش فيه صديقي باندرو الكولخوزي.

كان هذا الصبي مثلي، يتحدث بصوت عال. وكنا نكثر من التلفظ بالكلمات البذيئة، وهو ما أزعج الآنسة أو السيدة باليفال كثيرا، فسعت إلى إنقاذنا ما وسعها الوقت.

كانت الآنسة باليفال (سأدعوها من الآن فصاعدا هكذا بما أنها منذ أن عرفتها كانت عزباء بكل تأكيد، وبما أنني لست متأكدا من أنها قد تزوجت من قبل، أو ما إذا كانت قد فكرت في الزواج من قبل لذلك السبب، أو ما إذا كانت قد أحبت من قبل)، كانت الآنسة باليفال، كما بدأت القول، امرأة مثقفة تقرأ الشعر وهي سريعة التأثر، لذلك قد تقف طويلا وهي تغادر المنزل فتسمعنا نتحدث ثم تنادينا قائلة: أيها الولدان. عليكما ألا تتفوها بهذه الكلمات البذيئة.

كان باندرو الكولخوزي يبدو من جهة أشد الأطفال طيشا في العالم، ويبدو من جهة أخرى - وهو ما جعلني أنجذب إليه - ألطف الأطفال وأكثرهم تهذيبا.

قال: نعم الآنسة بالايفوم.

قالت له السيدة: بل باليفال. تعاليا هنا من فضلكما. أنتما الاثنان.

فذهبنا إلى الآنسة باليفال وسألناها عما تريد. قال باندرو: ماذا تريدين يا آنسة بالايفوم؟

دخلت الآنسة باليفال المنزل وأحضرت معها بعض الكتب وسلمت كلا منا كتابا دون أن تنظر إليهما. كان عنوان كتابي «المخلص... قصة شارب الخمر». وكان عنوان كتاب باندرو «السلام أخيرا... قصة شارب الخمر».

قال باندرو: ماذا نصنع بهما؟

قالت الآنسة باليفال: أريد منكما أن تقرآ هذين الكتابين، وأن تحاولا أن تكونا مؤدبين. أريد منكما الكف عن استخدام الألفاظ البذيئة.

قال باندرو: إن هذا الكتاب لا يذكر شيئا عن الكلام البذيء.

قالت السيدة: هناك درس مفيد لكل منكما في هذين الكتابين. اقرآهما، ولا تتفوها بالكلمات النابية مرة أخرى.

قلت: نعم سيدتي. أهذا كل شيء؟

قالت الآنسة باليفال: ثمة شيء آخر. هل يمكنكما مساعدتي في نقل آلة الأورج من الغرفة الخلفية إلى الغرفة الأمامية.

قال باندرو: بالتأكيد يا آنسة باليفال. في أي وقت.

فدخلنا منزل الآنسة باليفال. وبينما كانت ترشدنا كيف ننقل تلك الآلة بحيث لا نتلفها أو نؤذي أنفسنا، كنا نحركه بخطوات بطيئة من الغرفة الخلفية إلى الغرفة الأمامية.

قالت الآنسة باليفال: والآن اقرآ هذين الكتابين.

قال باندرو: نعم سيدتي. أهذا كل شيء؟

قالت السيدة باليفال: حسن. الآن أريد منكما أن تغنيا في حين أعزف أنا على الأورج.

قال باندرو: أنا لا أحسن الغناء يا آنسة باليفال.

قالت السيدة: أنت تحسن الغناء بلا شك يا بيدرو.

قال باندرو: باندرو وليس بيدرو.

ودون أن تجيبه جلست السيدة العجوز عند الأورج، ودون أن تذكر لنا ما علينا فعله بدأت بالعزف، وبعد برهة شرعت هي نفسها بالغناء. ونطق باندرو بصوت رقيق كلمة بذيئة جدا لم تسمعها الآنسة باليفال لحسن الحظ. بالتأكيد لم يكن صوت الآنسة باليفال جميلا جدا. كان صوت الأورج أعلى من صوتها. ومع ذلك كان من الممكن معرفة أن صوت الآنسة باليفال لم يكن جميلا.

التفتت إلينا وقالت: والآن، غنيا أيها الولدان.

لم نكن نعرف الكلمات ولا الموسيقى، ولكن بدا أن اللباقة تستدعي جهدا من جانبنا على الأقل. وهو ما فعلناه، محاولين - ما أمكننا ذلك - متابعة الموسيقى الصادرة عن الأورج والكلمات الصادرة من الآنسة باليفال.

إجمالا، حاولنا أن نغني ثلاث أغان. وكان باندرو يقول بعد كل أغنية: شكرا جزيلا يا آنسة باليفوم. هل يمكننا الانصراف الآن.

وأخيرا نهضت من قرب الأورج وقالت: أنا واثقة من أنكما أفضل من يصلح لهذا. إذا عرض عليكما أصدقاء السوء أن تشربا خمرا، فأعرضا عنهم.

قال باندرو: سنُعرض عنهم يا آنسة باليفوم. أليس كذلك يا أرام؟

قلت: أنا سوف أعرض عنهم.

قال باندرو: وأنا كذلك. هل يمكننا الانصراف الآن يا آنسة باليفوم؟

قالت: اقرآ الكتابين. لم يفت الأوان بعد.

قال باندرو: سنقرأهما، حالما نجد الوقت لذلك.

غادرنا منزل المرأة، وعدنا إلى منزل باندرو وبدأنا نقرأ الكتابين. وبينما كنا نقرأ، خرجت المرأة من منزلها ونادت بأعلى صوت: من منكما؟

قال باندرو: من منا ماذا؟

قالت الآنسة باليفال: من منكما غنى؟

قلت: كلانا غنى.

قالت الآنسة باليفال: لا. أحدكما فقط غنى. أحدكما لديه صوت مسيحي عذب.

قال باندرو: ليس أنا.

قالت لي الآنسة باليفال: إنه أنت. يوجين. هل كنت أنت من غنى؟

قلت: أنا آرام، لست يوجين. ولا أعتقد أني من غنى.

قالت الآنسة باليفال: تعاليا أيها الولدان.

قال باندرو: من؟

قالت السيدة: كلاكما.

عندما دخلنا منزلها وجلست الآنسة باليفال إلى الأورج مرة أخرى، قال باندرو: لا أريد أن أغني. لا أحب الغناء.

قالت السيدة: غنِّ أنت.

فغنيت.

نهضت الآنسة باليفال على قدميها وقالت: أنت من أبحث عنه. عليك أن تنشد في الكنيسة.

قلت: لن أغني.

قالت: عليك ألا تستخدم الألفاظ النابية.

قلت: أنا لا أتفوه بكلام بذيء. أعدك بألا أتفوه مجددا بكلام بذيء ما دمت حيا. لكني لن أنشد في الكنيسة.

قالت الآنسة باليفال: إن صوتك هو أجمل صوت مسيحي سمعته في حياتي.

قلت: هو ليس كذلك.

قالت: لا، هو كذلك.

قلت: حسن. لن أنشد على كل حال.

قالت الآنسة: يجب أن تنشد. يجب أن تنشد.

قال باندرو: شكرا جزيلا يا آنسة باليفال. هل يمكننا الانصراف الآن. إنه لا يريد الغناء في الكنيسة.

وظلت المرأة تردد قائلة: عليه أن ينشد. عليه أن ينشد.

قال باندرو: لمَ؟

قالت السيدة: لأجل روحه. ما اسمك؟

ذكرت لها اسمي. فقالت: أنت مسيحي طبعا؟

قلت: أظن ذلك.

قالت: أنت من أتباع الكنيسة المشيخية طبعا.

قلت: لا أدري.

قالت السيدة: أنت من أتباعها. أنت من أتباعها طبعا. أريدك أن تنشد في كنيسة شارع تولار المشيخية مع جوقة الفتيان يوم الأحد المقبل.

سأل باندرو مرة أخرى: لمَ؟

فردت السيدة قائلة: نحتاج إلى أصوات. علينا أن نأتي بأصوات فتية. يجب أن يكون لدينا منشدون. وعليه أن ينشد يوم الأحد المقبل.

قلت: لا أحب أن أغني، ولا أحب الذهاب إلى الكنيسة أيضا.

قالت الآنسة باليفال: اجلسا أيها الولدان. أود التحدث إليكما.

جلسنا. وتحدثت إلينا الآنسة باليفال مدة ثلاثين دقيقة على الأقل.

لم نصدق أي كلمة مما قالت، رغم أننا من باب الأدب أجبنا عن أسئلتها بالطريقة التي كنا نعلم أنها تود أن نجيبها بها. لكن عندما طلبت منا أن نجثو معها على ركبنا رفضنا ذلك. وقال باندرو: يمكن أن ننقل الأورج في أي وقت أو ما شبه ذلك، لكننا لن نجثو على ركبنا. ثم قال: أيمكننا الذهاب الآن.

قالت لي الآنسة باليفال: أنشد بحق كل غال لديك، وأعرض عن كل من يدعوك إلى شرب الخمرة.

قلت: نعم سيدتي.

قالت: أنت تعرف مكان الكنيسة؟

قلت: أي كنيسة؟

قالت: كنيسة شارع تولار المشيخية.

قلت: أعرف أين تقع.

قالت: سوف يتوقع وصولك السيد شروين صباح يوم الأحد في الساعة التاسعة والنصف.

وصاحبني باندرو إلى الكنيسة يوم الأحد، لكنه لم يجلس مع جوقة الفتيان ليغني. فقد جلس في الصف الأخير من الكنيسة

يشاهد وينصت. أما أنا فلم أشعر بتعاسة أكبر من تلك في حياتي، لكني أنشدت.

وقلت لباندرو بعد أن انتهى الإنشاد: لن أعود ثانية أبدا.

ولم أذهب يوم الأحد التالي طبعا، لكن ذلك لم يجد نفعا. لأن الآنسة باليفال قد أخذتنا إلى منزلها مرة أخرى، وعزفت على الأورج وغنت، ودفعتنا إلى محاولة الغناء، كانت مصرة على إبقائي في جوقة الفتيان. فقلت: لا. لست من يصلح لذلك. عندئذ قررت الآنسة باليفال أن تضع المسألة بطريقة عالمية أكثر. فقالت: لديك صوت مسيحي جميل، صوت يحتاج إليه الدين. إنك أنت نفسك عميق التدين، على رغم أنك لا تعرف ذلك بعد. وما دام الأمر كذلك، دعني أطلب منك أن تنشد لي كل يوم أحد. وسأدفع لك أجرا.

قال باندرو: كم؟

قالت الآنسة باليفال: خمسين سنتا.

كنا عادة نغني أربع أغان أو خمسا، ويستغرق ذلك كله نصف ساعة، على رغم أنه كان يتعين علينا أن نجلس مدة ساعة أخرى خلال الطقوس. باختصار، لم يكن ذلك مجديا. ولهذا السبب لم أوافق. فقالت الآنسة باليفال: دولارا واحدا. لن أدفع سنتا واحدا أكثر من ذلك.

قال باندرو: اجعليه دولارا وربعا.

قالت الآنسة باليفال: لن أدفع أكثر من دولار ولو سنتا واحدا.

قال باندرو: إن له أفضل صوت في الجوقة بأكملها. دولار واحد؟ إن صوتا كهذا يستحق دولارين في أي ديانة.

قالت الآنسة باليفال: لقد قدمت عرضي.

قال باندرو: ثمة ديانات أخرى.

إن كلامه هذا بالتأكيد أغاظ الآنسة باليفال. فقالت: إن صوته صوت مسيحي. والأكثر من ذلك أنه صوت مشيخي.

قال باندرو: سيسر المعمدانيون بالحصول على صوت مثل هذا بدولارين.

قالت الآنسة باليفال: أدفع دولارا واحدا.

قلت: لا أحب أن أنشد يا آنسة باليفال.

قالت: بل تحب. إنك فقط تظن أنك لا تحب. لو أنك استطعت رؤية وجهك حينما تنشد.

قال باندرو: هذا ليس صوتا يساوي دولارا واحدا.

قالت الآنسة باليفال: حسن أيها الولدان. سأدفع دولارا وخمسة عشر سنتا، ليس أكثر.

قال باندرو: نريد دولارا وربعا. أو نذهب إلى المعمدانيين.

قالت الآنسة باليفال: أنا موافقة. لكن علي القول إنكما عسيران في المساومة.

قلت: انتظري لحظة. أنا لا أحب أن أنشد. لن أنشد بدولار وربع أو بأي مقابل آخر.

قالت الآنسة باليفال: الاتفاقية اتفاقية.

قلت: لم أعقد أي اتفاقية. لقد أبرمها باندرو. فليغن هو.

قالت الآنسة باليفال: أنه لا يحسن الغناء.

فقال باندرو بفخر: لا يوجد في العالم صوت قبيح مثل صوتي.

قالت الآنسة باليفال: إن صوته المسكين لا يساوي عشرة سنتات.

قال باندرو: بل لا يساوي نكلة.

قلت: حسن. لن أنشد مقابل دولار وربع أو أي مقابل آخر. لا أحتاج إلى أي نقود.

قالت الآنسة باليفال: لقد عقدت اتفاقا.

قال باندرو: نعم. لقد فعلت.

فوثبت على باندرو في غرفة الآنسة باليفال الأمامية بالتحديد، وبدأنا نتعارك. فحاولت السيدة المسيحية العجوز فض العراك، لكن الخصام تواصل وتبعثر كل ما في الغرفة ما عدا الأورج، وأصابنا من الإجهاد ما منعنا من مواصلة العراك.

قالت الآنسة باليفال: ستأتي يوم الأحد إذن مقابل دولار وربع.

قلت: يا آنسة باليفال: لن أنشد في تلك الجوقة إلا إذا أنشد فيها باندرو أيضا.

فاحتجت الآنسة باليفال قائلة: ولكن صوته ليس عذبا.

فقلت: لا شأن لي بذلك. إذا كان عليَّ أن أنشد فعليه أن ينشد أيضا، وعليه أن يصاحبني إلى هناك كل يوم أحد.

قالت الآنسة باليفال: حسن. دعاني أفكر.

وأعارت الموضوع اهتماما جيدا، ثم قالت: لنفترض أنه يذهب ويجلس في الجوقة، لكنه لا ينشد. لنفترض أنه يبدو وكأنه ينشد.

قلت: أنا موافق، ولكن عليه أن يكون حاضرا هناك طوال الوقت.

قال باندرو: وعلامَ سأحصل؟

قالت الآنسة باليفال: حسن، أنا الآن واثقة من أنك لا تتوقع مني أن أدفع لك أنت أيضا.

قال باندرو: إذا كان علي الذهاب إلى هناك، فينبغي أن أنال أجرا.

قالت الآنسة باليفال: أنا موافقة. سأدفع دولارا للصبي الذي ينشد، وخمسة وعشرين سنتا للصبي الذي لا ينشد.

قال باندرو: لا يوجد في العالم صوت أقبح من صوتي.

قالت الآنسة باليفال: ينبغي أن تكون عادلا. فأنت على كل حال لن تنشد. ستكون واقفا هناك مع بقية الأطفال.

قال باندرو: إن خمسة وعشرين سنتا ليست كافية.

قالت الآنسة باليفال: أنا موافقة. سأدفع دولارا للصبي الذي ينشد، وخمسة وثلاثين سنتا للصبي الذي لا ينشد.

قال باندرو: اجعليها خمسين.

قالت الآنسة باليفال: حسن جدا، إذن، سأدفع دولارا لك (تعنيني أنا)، وخمسين سنتا لك (تعني باندرو).

قال باندرو: هل نبدأ العمل الأحد المقبل؟

قالت الآنسة باليفال: هذا صحيح. سأدفع لكما هنا بعد الطقوس. لكن لا تتفوها بكلمة مما جرى لبقية الأولاد في الجوقة.

قال باندرو: لن نخبر أحدا.

وأصبحت - بهذه الطريقة وأنا في الحادية عشرة من عمري - مشيخيا إلى حد ما، على الأقل صباح كل يوم أحد. ولم يكن ذلك لأجل المال. إنها ببساطة مسألة اتفاقية تم عقدها كما أن الآنسة باليفال عقدت آمالها على أن أنشد لأجل الديانة.

وكما قلت في البداية منذ ست دقائق أو سبع، هناك شيء غريب يتعلق ببلدنا، على أي حال، وهو السهولة التي نغير بها كلنا

- أو كل من أعرف على الأقل - دياناتنا دون أن نؤذي شيئا أو أحدا. فلقد عُمدتُ عندما بلغت الثالثة عشرة في «الكنيسة الكاثوليكية الأرمينية» ومع هذا كنت لا أزال أنشد لصالح المشيخيين.

وقد تغير صوتي بعد شهرين من تعميدي، فنُقض اتفاقي مع الآنسة باليفال. أما بالنسبة إلى «الكنيسة الكاثوليكية الأرمينية» الواقعة في شارع فينتورا فقد كنت أذهب إليها مرتين تقريبا كل سنة. وفي باقي الأيام، كنت أنتقل من دين إلى آخر، وفي النهاية لم أكن محرجا لذلك، بحيث إنني الآن أومن - مثل معظم الأمريكيين - بكل الأديان بما في ذلك دیانتي الخاصة. لكن دون إساءة النية تجاه أي كان، مهما كان ما يؤمن به أو لا يؤمن به. ما يهم أنه هو نفسه شخص صالح.

٩- السيرك

كلما أتت فرقة سيرك إلى المدينة؛ أدى ذلك إلى طيشنا أنا وصديقي القديم جوي، وكان يكفينا أن نرى اللافتات على الحيطان وعلى نوافذ المتاجر الفارغة، حتى يبدأ جنوننا، ويكفينا أن نعرف أن فرقة سيرك في طريقها إلى المدينة، حتى تنشأ فينا الرغبة في معرفة مدى فائدة القدر الضئيل من التربية للمرء في أي حال من الأحوال.

بعد وصول السيرك إلى المدينة، فلا يرجى نفع منا أبدا؛ إذ كنا نقضي وقتنا كله قرب القطارات، نشاهدهم وهم يخرجون الحيوانات، ونجلس قرب الزرائب؛ محاولين كسب ود أصحاب الحيوانات والعمال، وقد اعتدنا أن نجلب الماء للحيوانات، ثم نجلس قربها ونتظاهر بأننا جزء من كل هذا العمل الرائع (تنظيم كل شيء وانتظار الناس والتحدث بلباقة كي يأتوا ويدفعوا نقودهم).

جاء جوي ذات يوم يجري إلى قاعة الدرس في مدرسة إمرسون متأخرا عشر دقائق. ودون أن يهتم بنزع قبعته أو محاولة تبرير تأخره، صاح قائلا: آرام. ماذا تفعل هنا؟ لقد وصل السيرك إلى المدينة.

الحقيقة أني لم أكن قد تذكرت. وقفزت أعدو خارج الفصل والآنسة فليبيتي المسكينة تصرخ خلفي وهي تقول: آرام الجاروجلانياني. ابق في هذا الفصل. هل تسمعني يا آرام الجاروجلانياني.

لقد سمعتها جيدا، وكنت أعرف ماذا يمكن أن يعني عدم بقائي: الضرب مرة أخرى من قبل الرجل العجوز دوسون. لكني لم أستطع المقاومة، فقد كنت مهووسا بالسيرك.

قال لي جوي في الطريق: كنت أبحث عنك في كل مكان.

قلت: لقد نسيت. صحيح أني كنت أعلم بمجيئه، لكني نسيت أن موعده اليوم.

قال جوي: ظننت أنك كنت تعلم، وأنك هناك عند القطارات كما حدث في السنة الماضية، فما الذي جعلك تنسى؟

قلت: لا أدري. لا شيء على ما أظن.

كنت مخطئا، لكني لم أعرف ذلك في حينه. في الحقيقة أنا لم أنس. لكني تذكرت ما كنت قد فعلته. تذكرت ضرب دوسون الذي نلته في السنة الماضية بسبب غيابي عن المدرسة، يوم مجيء السيرك إلى المدينة. وقد كان ذلك هو ما جعلني أنام إلى وقت متأخر صباحا، في حين كان علي أن أستيقظ وأرتدي ملابسي وأخرج متوجها إلى القطارات. كنت أفكر في الضرب الذي نلته من دوسون العجوز. لكني لم أعرف ذلك في حينه.

ولقد كنا -أنا وجوي- ننال العقاب كما أقِرّ، لأننا نود أن نكون منصفين مع مجلس التربية. فإذا كان بقاؤك خارج المدرسة، من دون أن تكون مريضا، مخالفا للقوانين. وإذا كان من المفروض أن تعاقب على فعلتك هذه، فليكن. وبما أننا أذنبنا، فلندع مجلس التربية يتخذ الإجراءات اللازمة.

اعتاد دوسون العجوز القول: السيرك؟ لقد فهمت. السيرك؟ ارفع مؤخرتك أيها الولد.

فكان على جوي أولا، ثم عليَّ ثانيا، أن نرفع مؤخرتينا. فيقوم دوسون العجوز بتمرين كتفيه، في حين نحاول نحن ألا نصرخ. ولم نكن نصرخ بعد خمس ضربات أو ست ضربات، لكننا نصرخ بعد ذلك صراخا شديدا. فكان بإمكان جميع من في المدرسة سماع صراخنا. وعندما تكرر ذهابنا إليه كان دوسون العجوز يطلب منا محاولة التقليل من الصراخ، بما أننا في مدرسة يحاول التلاميذ فيها تحصيل العلم.

قال دوسون العجوز: هذا ليس عدلا للآخرين. فهم يحاولون تعلم شيء ينفعهم.

قال جوي: ليس باليد حيلة. إنها تؤلم.

قال دوسون العجوز: أعرف ذلك. لكن يبدو لي أن بإمكان الصبي المبالغة في صراخه إن لم يكن يعبأ بالآخرين.

ثم ضرب جوي فحاول قدر المستطاع ألا يصرخ عاليا جدا. واحمر وجهه كثيرا بعد الضرب، وأصاب دوسون العجوز تعب شديد.

قال جوي: كيف كان صراخي؟

قال دوسون العجوز: أفضل من ذي قبل. لقد تصرفت أحسن تصرف.

قال جوي: لقد فعلت ما بوسعي.

قال دوسون العجوز: أنا ممتن لك.

كان حينها متعبا. فاقتربت من الكرسي الذي أمامه، وهو الكرسي الذي أعطاه لنا أثناء العقوبة ليساعدنا على معاناة الألم. وأصبحت في وضع الاستعداد فقال: انتظر يا آرام دقيقة حتى

أسترجع أنفاسي. أنا لست في الثالثة والعشرين من عمري، بل في الثالثة والستين. دعني استرح بعض الوقت.

قلت: حسن. لكني أريد بالتأكيد أن ننتهي من هذا الأمر.

وبعد أن نال قسطا من الراحة بدأ يضربني، وأخذت أصرخ صراخا أعلى من صراخ جوي بقليل. ثم عدنا إلى الفصل. وكان الجميع ينظرون إلينا.

قال جوي: ماذا تتوقعون؟ كنتم ستتهاوون وتموتون إن نلتم مثل ذلك الضرب. ما كنتم لتصرخون فقط، بل كنتم ستموتون.

ها قد عاد السيرك إلى المدينة. وانطوت سنة أخرى، وها هو شهر أبريل يعود من جديد، ونحن في طريقنا إلى موقع السيرك. لقد رأونا للمرة الأولى في المدرسة وعرفوا أننا ذاهبان إلى السيرك. فقلت: أتعتقد أنهم سيرسلون ستافورد في طلبنا.

وكان ستافورد هو الرجل الذي يرسل في أثر الأطفال الهاربين من المدرسة.

قال جوي: يمكننا الفرار دوما. إذا ما جاء سأمضي في اتجاه، وتمضي أنت في اتجاه آخر. فلن يستطيع الجري وراءنا نحن الاثنين. سينفذ منه أحدنا على الأقل.

عندما وصلنا إلى الموقع، جلسنا وبدأنا نراقب. كانت طريقة إعدادهم للأشياء رائعة؛ قلة من الرجال يقومون بعمل تظن أنه يحتاج إلى مائة رجل لإنجازه.

وفجأة صاح فينا رجل يدعوه الجميع بـ «الأحمر» قائلا: أنتما. تعاليا، ما رأيكما في مساعدتكما لنا في العمل؟

فجرينا -أنا وجوي- نحوه وقلت: نعم سيدي.

كان رجلا صغير الحجم، ذا كتفين عريضتين ويدين كبيرتين. ولن تشعر بأنه كان صغيرا، لأنه يبدو قويا جدا، ويغطي رأسه شعر كثيف أحمر اللون.

قال «الأحمر»: سيكون عملا سهلا. ما عليكما إلا القيام بما يأمر به الرجال.

قال جوي: نعم سيدي.

كان الجميع منشغلين عندما رأينا ستافورد. فقلت: لا نستطيع الهرب الآن.

قال جوي: ليأت. لقد وعدنا «الأحمر» بمساعدته في العمل. وسنقوم بذلك.

قلت: لدي فكرة. سنقول له إننا سنذهب معه بعد الانتهاء من العمل هنا، ثم ننطلق جريا.

قال جوي: أنا موافق.

كان ستافورد رجلا ضخما يرتدي زي العمل، أحمر الوجه، يبدو كما لو كان يعمل في جهة قانونية أو ما شابه ذلك. قصدنا قائلا: حسن... أنتما تعاليا معي.

فقال جوي: لقد وعدنا «الأحمر» بمساعدته. سنذهب معك حالما ننهي عملنا.

كان «الأحمر» يصدر الأوامر. ثم انتهى العمل برمته، وكنا قد أنهينا ما كلفنا به. لم تتح لنا فرصة اكتشاف ما كان سيقوله لنا «الأحمر» أو ما إذا كان سيدعونا للأكل معه ومع الرجال أو غير ذلك. فقد أفلت جوي وجرى في اتجاه وجريت أنا في اتجاه آخر. فلحق بي ستافورد، وسمعت رجال السيرك يضحكون و«الأحمر»

يصيح قائلا: اجر أيها الفتى، اجر. لن يتمكن من الإمساك بك. إنه واهن. أره عدوا سريعا فهو بحاجة إلى التمرين.

واستطعت سماع ستافورد أيضا، وهو يشتم بصوت عال.

إلا أني ابتعدت ومكثت في مكان لا يستطيع رؤيتي فيه، إلى أن رأيته ينطلق بسيارته الفورد. ثم عدت إلى موقع السيرك، حيث وجدت جوي الذي قال: سننال ضربا مبرحا فعلا هذه المرة.

قلت: سنصرخ صراخا عاليا إذا حدث ذلك. قد يكون دوسون في الثالثة والستين من عمره. لكنه لا يزال قويا.

قال جوي: سيكون ذلك غدا على كل حال.

كلفنا «الأحمر» بعمل آخر لنقوم به في الموقع. وتركنا نجلس إلى جواره على الطاولة عند الأكل. كان الأمر رائعا. وقد شاهدنا كلا العرضين: عرض بعد الظهر، والعرض المسائي. ثم ساعدناهم في العمل على تفكيك السيرك إلى أجزاء من جديد. وذهبنا بعد ذلك إلى القطارات، ثم إلى المنزل.

عدت إلى المنزل متأخرا جدا. وفي الصباح كنت خاملا في الوقت الذي كان يتعين علي أن أذهب إلى المدرسة.

كانوا في انتظارنا، ولم تسمح لنا الآنسة فليبيتي حتى بالجلوس. وطلبت منا أن نذهب إلى مكتب الإدارة. وكان دوسون العجوز في انتظارنا أيضا. وكان ستافورد هناك، أيضا غاضبا جدا.

قال دوسون لستافورد: إنهما هنا. خذهما بعيدا إن أردت.

كان من الواضح أنهما كانا يتحدثان لبعض الوقت، وأنهما لم ينسجما. ولم يتوصلا إلى اتفاق. إذ يبدو أن دوسون العجوز لا يحب ستافورد، وأن ستافورد لا يحب دوسون العجوز.

قال دوسون العجوز: في هذه المدرسة أنا من ينفذ العقوبات اللازمة، ولا أحد غيري. ومع ذلك لا أستطيع منعك من إخراجهما من هذه المدرسة.

لم يقل ستافورد أي شيء. واكتفى بمغادرة المكتب.

قال دوسون العجوز: والآن أيها الولدان. كيف جرت الأمور؟

قال جوي: لقد كانت رائعة.

قال دوسون العجوز: من سيكون الأول؟

فقلت :أنا.

قال السيد دوسون : حسن يا آرام. تمسك بالكرسي جيدا، وحاول ألا تصرخ صراخا عاليا جدا.

قلت: نعم سيدي. سأفعل ما بوسعي.

لقد حدث أمر غريب. صحيح أنه ضربني، وصحيح أنني صرخت، لكنه كان صراخا خافتا. إنه أخفت صراخ صرخته، لأن الضرب كان أهون ضرب نلته. لم يكن مؤلما، ولذلك لم أبكِ، علما بأنني كنت خشيت أن أفعل.

وكذلك كان الأمر مع جوي. وانتظرنا معا كي يسمح لنا بمغادرة المكتب.

قال دوسون: أنا ممتن لكما أيها الولدان، لأنكما خففتما الصراخ هذه المرة. أنا لا أريد أن يظن الناس أني أقتلكما.

كنا نود شكره على ضربه لنا ضربا خفيفا. لكننا لم نستطع قول ذلك. أظن أنه عرف رغم ذلك شعورنا، لأنه كان يبتسم ابتسامة توحي بأنه يعرف ذلك.

ثم عدنا إلى الفصل.

١٠ - السباحون الثلاثة وبقال «ييل»

كانت الجداول جافة أغلب أيام السنة، لكنها كانت تهدر عندما لا تكون جافة، إذ كانت تبدأ بالهدير عندما تذوب الثلوج في التلال. كانت المياه تتدفق في الربيع، فتتسارع معها دقات القلب، ولكن حين تتحول الحقول من اللون الأخضر إلى اللون البني تنخفض سرعة المياه في الجداول، وتهدأ معها دقات القلب، وتكون بوادر المياه القادمة من التلال شديدة البرودة، وهائجة بالنسبة إلى جسم صبي عار.

يجلس الصبي - وحيدا أو مع رفاقه - على حافةً الجدول، وينظر إلى الماء لبعض الوقت، ثم ينزع ملابسه ويقفز قفزة سريعة، ويسبح إلى الضفة الأخرى. وإذا كان هذا الصبي ضمن مجموعة أولاد، فإن البقية يتبعونه على الفور، ولم يكن الأمر أن الماء كان باردا فقط، بل الأدهى أنه ليس لديهم متسع من الوقت، فقد كان الماء في فصل الربيع لا يطاق.

وذات يوم من أيام شهر أبريل انطلقت إلى جدول ثومبسون بصحبة مراد ابن عمي، وصديق له يدعى جو باتتكورت، الذي كان يعشق عدم التقيد والبقاء خارج المنزل. فقد كانت قاعة الدرس تجعله متخلفا، فإذا ما خرج من المدرسة، أصبح مميزا ومهذبا ولطيفا على أكمل وجه.

وفي صباح يوم سبت، قررنا أن نسير إلى الجدول لنستطيع الوصول إليه عند الظهيرة، حين يصبح الجو دافئا، وكان جدول ثومبسون يحاذي طريقا ريفيا به جسر، وتتم السباحة جنوب هذا

قال دوسون العجوز: في هذه المدرسة أنا من ينفذ العقوبات اللازمة، ولا أحد غيري. ومع ذلك لا أستطيع منعك من إخراجهما من هذه المدرسة.

لم يقل ستافورد أي شيء. واكتفى بمغادرة المكتب.

قال دوسون العجوز: والآن أيها الولدان. كيف جرت الأمور؟

قال جوي: لقد كانت رائعة.

قال دوسون العجوز: من سيكون الأول؟

فقلت :أنا.

قال السيد دوسون : حسن يا آرام. تمسك بالكرسي جيدا، وحاول ألا تصرخ صراخا عاليا جدا.

قلت: نعم سيدي. سأفعل ما بوسعي.

لقد حدث أمر غريب. صحيح أنه ضربني، وصحيح أنني صرخت، لكنه كان صراخا خافتا. إنه أخفت صراخ صرخته، لأن الضرب كان أهون ضرب نلته. لم يكن مؤلما، ولذلك لم أبكِ، علما بأنني كنت خشيت أن أفعل.

وكذلك كان الأمر مع جوي. وانتظرنا معا كي يسمح لنا بمغادرة المكتب.

قال دوسون: أنا ممتن لكما أيها الولدان، لأنكما خففتما الصراخ هذه المرة. أنا لا أريد أن يظن الناس أني أقتلكما.

كنا نود شكره على ضربه لنا ضربا خفيفا. لكننا لم نستطع قول ذلك. أظن أنه عرف رغم ذلك شعورنا، لأنه كان يبتسم ابتسامة توحي بأنه يعرف ذلك.

ثم عدنا إلى الفصل.

١٠- السباحون الثلاثة وبقال «ييل»

كانت الجداول جافة أغلب أيام السنة، لكنها كانت تهدر عندما لا تكون جافة، إذ كانت تبدأ بالهدير عندما تذوب الثلوج في التلال. كانت المياه تتدفق في الربيع، فتتسارع معها دقات القلب، ولكن حين تتحول الحقول من اللون الأخضر إلى اللون البني تنخفض سرعة المياه في الجداول، وتهدأ معها دقات القلب، وتكون بوادر المياه القادمة من التلال شديدة البرودة، وهائجة بالنسبة إلى جسم صبي عار.

يجلس الصبي - وحيدا أو مع رفاقه - على حافةٍ الجدول، وينظر إلى الماء لبعض الوقت، ثم ينزع ملابسه ويقفز قفزة سريعة، ويسبح إلى الضفة الأخرى. وإذا كان هذا الصبي ضمن مجموعة أولاد، فإن البقية يتبعونه على الفور، ولم يكن الأمر أن الماء كان باردا فقط، بل الأدهى أنه ليس لديهم متسع من الوقت، فقد كان الماء في فصل الربيع لا يطاق.

وذات يوم من أيام شهر أبريل انطلقت إلى جدول ثومبسون بصحبة مراد ابن عمي، وصديق له يدعى جو باتتكورت، الذي كان يعشق عدم التقيد والبقاء خارج المنزل. فقد كانت قاعة الدرس تجعله متخلفا، فإذا ما خرج من المدرسة، أصبح مميزا ومهذبا ولطيفا على أكمل وجه.

وفي صباح يوم سبت، قررنا أن نسير إلى الجدول لنستطيع الوصول إليه عند الظهيرة، حين يصبح الجو دافئا، وكان جدول ثومبسون يحاذي طريقا ريفيا به جسر، وتتم السباحة جنوب هذا

الجسر، وإلى غرب الجدول حقل كبير مسيج، فيه جياد وحيوانات أخرى، أما شرقه فهناك الطريق الريفي، ويمتد الطريق والجدول مسافة عدة أميال، وكان الجدول يجري إلى الجنوب، والجسر التالي له يقع على مسافة ميلين، وكان يوم السباحة في فصل الصيف لا ينتهي، حتى يسبح الصبي في الجدول إلى الجسر الآخر، ويرتاح قليلا في الحقل، ثم يسبح عائدا إلى حيث ابتدأ.

وفي الوقت الذي كنا نبلغ فيه جدول ثومبسون يكون ضياء النهار قد تحول إلى ظلمة كظلمة الشتاء، هي في الحقيقة بداية عاصفة. فقد كان الماء يهدر، والسماء رمادية اللون تتحول إلى السواد، والهواء باردا لا يطاق، وكانت الأرض تبدو وحيدة حزينة.

قال جو باتنكورت: لقد قطعت كل هذه الطريق من أجل السباحة. وسواء أأمطرت أم لم تمطر، فإنني سأسبح.

فقلت: وأنا أيضا.

قال لي ابن عمي مراد: تريث. سأجرب أنا وجو السباحة. فإذا كانت ملائمة يمكنك المجيء معنا. هل تستطيع السباحة حقا؟

قلت: اصمت.

قال جو: هل تستطيع السباحة؟

قلت: نعم أستطيع السباحة.

قال ابن عمي مراد: إذا سألته أجاب بأنه يستطيع فعل أي شيء، أفضل من أي شخص في هذا العالم.

لم يعرف أي منهما كم كنت أشك في قدرتي على السباحة لاجتياز هذا الماء الهادر البارد. في الواقع، كان الخوف يتملكني عند رؤية هذا الماء المعتم وهو يهدر.

وقلت للماء: اهدأ.

وأخرجت رغيفي وقضمته. وكاد ابن عمي مراد يلقي بالرغيف في الماء. وقال: سنأكل بعد السباحة، أتريد أن يصيبك الغثيان؟

لقد نسيت ذلك، لأني كنت خائفا جدا. وقلت: إن قطعة واحدة من الخبز لا تصيب أحدا بالغثيان.

فقال جو: سيكون طعمها ألذ بعد السباحة.

كان صبيا طيبا جدا، فقد عرف أني كنت خائفا. قال: لنجرب. سنسبح عبر الجدول، ثم نأخذ قسطا من الراحة، ثم نسبح عائدين، ثم نرتدي ثيابنا ونأكل. وإذا جاءت العاصفة سنعود إلى المنزل، وإن لم تأت سنسبح أكثر.

قال ابن عمي مراد: لن تأتي عاصفة. إن كنا سنسبح، علينا فعل ذلك بسرعة. ثم نعود إلى المنزل.

كان جو - في ذلك الحين - ينزع ملابسه. وكذلك كان يفعل ابن عمي مراد، وأنا أيضا. ووقفنا على حافة الجدول ننظر إلى الماء البغيض. لا شك أنه لم يكن يشجع على القفز والنزول بالرأس، لكن لا توجد طريقة مشرفة للغطس غيرها. فإن حاولت المشي في الماء، فلن تكون سباحا. وإن قفزت ونزلت بقدميك فلا بأس في ذلك، لكنها تعد قفزة سيئة. من جانب آخر، كان الماء بغيضا منفرا، وسرعة جريان الماء جعلت الضفة الأخرى للجدول تبدو أبعد مما هي عليه.

وقفز جو دون أن ينطق بكلمة. وقفز ابن عمي مراد دون أي كلمة. كانت اللحظة أو اللحظتان الفاصلتان بين القفزتين تبدوان أياما طويلة حلمناها في الشتاء، لأني لم أكن أشعر بالخوف

فحسب. بل كنت أشعر بالبرد أيضا. وقفزت أنا أيضا نازلا على رأسي، وأنا ما أزال خائفا.

والأمر التالي الذي عرفته - ولم يكن بعد أكثر من ثلاث ثوان - هو أنني كنت أسمع صياح جو وصياح ابن عمي مراد، وصياحي أنا نفسي. ما حدث هو أننا نزلنا على رؤوسنا في الطين إلى أكتافنا. وكان كل واحد منا يتساءل عما حدث للآخرين. وجثونا على ركبنا جميعا على الطين اللين في ذلك الماء الهادر البارد.

لقد قفزنا ونحن وقوف، ولو قفزنا ونحن نجري لكنا غطسنا في الطين إلى أقدامنا ورؤوسنا مغروسة في الأسفل، ولبقينا هناك حتى الصيف أو بعده.

لقد أخافنا ذلك بعض الشيء، وأفرحنا فرحا شديدا - في الوقت ذاته - لبقائنا على قيد الحياة.

وبينما كنا جاثمين في الطين، هبت العاصفة. فقال جو: سوف يحجزنا المطر. فلنبق هنا بعض الوقت.

كنا جميعا نشعر بالبرد. إلا أنه كان معقولا أن نحاول السباحة ما وسعنا ذلك. وكان عمق الماء أقل من ثلاث أقدام، ومع ذلك عبر جو الجدول سباحة على نحو ما، وعاد.

سبحنا مدة كانت تبدو طويلة. لكنها ربما لم تتجاوز عشر دقائق ربما. وخرجنا بعد ذلك من الماء، وجلسنا تحت شجرة وتناولنا غداءنا. وبدل أن يتوقف هطول المطر، ازداد قوة. فقررنا العودة إلى البيت مباشرة. وقال جو: قد نجد من يوصلنا معه.

لكن الطريق الريفية كانت مقفرة طيلة مسيرنا إلى ملقا. وفي ملقا قصدنا دكان بقالة وتدفأنا. قال البقال: أين كنتم أيها الأولاد؟

قال جو: كنا نسبح.

قال: تسبحون؟

قال جو: بالتأكيد. كنا نسبح في الجدول.

قال البقال: كيف كان؟

قال جو: كان عمقه أقل من ثلاث أقدام.

- أكان باردا؟

- باردا كالجليد.

فقال البقال: هل قضيتم وقتا ممتعا؟

فسأل جو ابن عمي مراد قائلا: هل استمتعنا؟

لم يكن جو يعلم إن كان قضى وقتا ممتعا أم لا. فقال ابن عمي: لا أدري. عندما قفزنا غطسنا في الطين إلى الكتفين.

قال البقال: حسن. سأجمع وأحرق. والآن أخبروني، أيها الأولاد، ما الذي دعاكم لفعل ذلك؟

قال جو: لا شيء.

قال البقال: والآن. أخبروني، أيها الأولاد، ما أصلكم؟

قال جو: كلنا من كاليفورنيا. لقد ولدت في فريزنو، وكذلك مراد وابن عمه.

قال البقال: والآن. أخبروني، أيها الأولاد، أي نوع من التعليم تلقيتم؟

أجاب جو: نحن غير متعلمين.

قال البقال: سأقطف من شجرة وأقذف في صندوق. والآن اخبروني، أيها الأولاد، أي لغة تتكلمون غير الإنجليزية؟

قال جو: أنا أتكلم البرتغالية.

قال البقال: أنت غير متعلم؟ لقد ذهبت إلى بيل، يا ولدي، ولا أتكلم بالبرتغالية، وماذا عنك أنت يا بني؟ (يقصد ابن عمي)

قال ابن عمي: أنا أتكلم اللغة الأرمينية.

قال البقال: سأقطع من كرمة وتأكلني فتاة صغيرة. أنا لا أستطيع التحدث بكلمة واحدة بالأرمينية. والآن أخبرني يا بني، ما اسمك؟ (يقصدني أنا)

قلت: آرام الجاروجلانياني.

قال: أظن أنني أستطيع تهجئته: جا. رو. جلانياني. هل هو كذلك.؟

قلت: هو كذلك.

قال: آرام.

قلت: نعم سيدي.

قال: بأي لغة تتحدث؟

قلت: أتحدث بالأرمينية. وهذا هو ابن عمي، مراد الجاروجلانياني.

وتوقفت سيارة فورد أمام الدكان. نزل منها رجل عجوز عبر الأرضية الخشبية ودخل الدكان. وقال: أعطني مشروبا يا أبوت.

فقال له البقال: سيد هارمون. أريد أن أعرفك بثلاثة من أفضل الكاليفورنيين في هذه الولاية العظيمة.

وأشار البقال إلى جو، فقال: أدعى جوزيف باتينكورت. أنا أتكلم البرتغالية.

قال الرجل العجوز: أدعى ستيفن ل. هارمون.

وأشار البقال إلى ابن عمي، فقال مراد: أدعى مراد الجاروجلانياني.

فسأله هارمون: وأي اللغات تتكلم؟

قال ابن عمي مراد: الأرمينية.

وأعطى البقال السيد هارمون مشروبه. فشربه هارمون وقال: أنا فخور جدا بالتعرف إلى كاليفورني يتكلم الأرمينية.

وأشار البقال إليَّ، فقلت: أدعى آرام الجاروجلانياني.

فسألني هارمون: هل أنتما أخوان؟

قلت: بل ابنا عم.

قال هارمون: لا فرق. والآن يا أبوت هلا ذكرت لي من فضلك سبب هذا الاحتفال؟

قال البقال: لقد جاء الأولاد للتو من السباحة في الجدول.

قال هارمون: جاءوا من ماذا؟

رد البقال: جاءوا من السباحة.

قال هارمون: هل منكم من يشعر بالمرض؟

قال جو: مرض! نحن لسنا مرضى.

قال البقال ضاحكا: مرضى؟ مرضى؟ لقد قفز هؤلاء الأولاد في ماء الشتاء الأسود أيها القاضي.

فنظر هارمون إلى كل واحد منا بتمعن كأنه يريد أن يتذكرنا بقية حياته.

وقال: إلى اللقاء أيها الأولاد. علي أن أذهب إلى العمل.

قلنا: إلى اللقاء.

في ذلك الحين. أوشكت ملابسنا أن تجف، لكن المطر لم يتوقف.

فقال جو: شكرا جزيلا يا سيد أبوت. علينا أن نعود إلى البيت.

فقال البقال: لا شكر على واجب. أشكركم.

تركنا الدكان بهدوء وبدأنا نسير نحو الطريق. وخف المطر كثيرا لدرجة أنه لم يبدو مطرا على الإطلاق. ولم أدر بما أفكر. وكان جو أول من تكلم. فقال: السيد أبوت هذا رجل غريب الأطوار.

فقلت: الاسم المكتوب على اللافتة هو داركوس. أما أبوت فهو اسمه الأول.

قال جو: سواء أكان الأول أم الأخير. إنه رجل غريب الأطوار.

ومضينا في الطريق مسرعين. وبعد بضع دقائق انقشعت السحب السوداء وبزغت الشمس. فقال جو: لقد سبحنا فعلا في ذلك الجدول، هل كان هذا جنوناً؟

قال ابن عمي مراد: لا أدري.

استغرق الطريق منا ساعة أخرى حتى وصلنا إلى منازلنا. لقد فكرنا جميعا في الرجلين. وما إذا كان البقال مجنونا أم لا. كنت أعتقد أنه ليس مجنونا، ولكنه بدا لي في الوقت نفسه أنه تصرف بعبط.

قال جو: إلى اللقاء.

فقلنا له : إلى اللقاء.

وسار في الشارع. ثم التفت على بعد خمسين قدما وقال كلاما كأنه يحدث نفسه. فصاح ابن عمي قائلا: ما الأمر؟

قال جو: لقد كان...

قلت صائحا: كان ماذا؟

فأجاب جو صائحا: كان مجنونا.

قلت صائحا: ماذا؟ كيف عرفت؟

صاح جو قائلا:كيف يمكن أن تكون مقطوفا من شجرة وتأكلك فتاة صغيرة؟

قال ابن عمي مراد: افترض أنه مجنون. ماذا في ذلك؟

فوضع جو كفه أمام وجهه وبدأ يفكر. كانت الشمس ساطعة حينئذ، والعالم يغمره الضوء. ثم صاح قائلا: «لا أعتقد أنه مجنون» وتابع سيره.

قال ابن عمي: إنه مجنون.

قلت: ربما ليس مجنونا دائما.

وقررنا ترك الموضوع عند هذا الحد حتى نعود إلى السباحة مرة أخرى، وعندئذ يمكن أن نزور الدكان مرة أخرى ونرى ما حدث.

بعد شهر وإثر السباحة في الجدول، ذهبنا نحن الثلاثة إلى الدكان. وكان الرجل الذي يعمل به أصغر سنا من السيد أبوت داركوس بكثير. قال له ابن عمي مراد: أين السيد داركوس؟

قال الشاب: إنه لم يعد هنا.

أخيرا سأل جو: هل هو مجنون؟

قال الشاب: يصعب قول ذلك. لقد ظننت في بداية الأمر أنه مجنون. ثم قررت أنه ليس مجنونا. كانت طريقة إدارته للدكان تجعلك تعتقد أنه مجنون. كان يهب الناس أكثر مما يبيعهم. حين تسمعه يتكلم تظن أنه مجنون.

قال جو: شكرا لك.

أصبح الدكان كله مرتبا، وليس ممتعا كثيرا. خرجنا وبدأنا نسير عائدين إلى البيت. وقال جو: إنه مجنون.

قلت: من؟

قال جو: الرجل الذي في الدكان الآن.

قلت: ذاك الشاب؟

قال جو: نعم. ذلك الرجل الجديد الذي في الدكان غير متعلم على الإطلاق.

قال ابن عمي مراد: أعتقد أنك على صواب.

وطوال طريق العودة، كنا نتذكر البقال المثقف. وقال لنا جو عندما تركنا ومضى في الشارع: إلى اللقاء.

فأجاب مراد: إلى اللقاء.

قلت: حسن. سأقطف من كرمة وتأكلني فتاة صغيرة.

لقد كان حقا رجلا غريب الأطوار.

بعد عشرين عاما من تلك الحادثة. أيقنت أنه كان شاعرا، وأنه كان يدير تلك البقالة لأجل الشعر فحسب، لا لأجل المال.

١١- لوكوموتيف (القاطرة) ٣٨

ذات يوم، قدم رجل إلى المدينة يمتطي حصانا، ومكث بالقرب من المكتبة العامة، حيث كنت أقضي معظم وقتي في تلك الأيام. كان هنديا طويل القامة من قبيلة أوجيبواي ويدعى - كما قال لي - «لوكوموتيف ٣٨».

وكان كل من في المدينة يعتقد أنه مجنون.

وبعد ستة أيام من وصوله صدمت حصانه سيارة، وكانت إصابته بليغة، فمات الحيوان في اليوم التالي. وظل الهندي يعرج برجله التي سقط عليها الحصان. وذهب الهندي بعد ذلك إلى المتجر الواقع في زاوية الطريق، وأجرى مكالمة هاتفية إلى خارج الولاية. فقد هاتف أخاه في ولاية أوكلاهوما.

كنت وقتها في المتجر فرآني بعد أن أنهى مكالمته.

فقال: أهلا ويلي.

كان يعلم أن اسمي لم يكن ويلي، لكنه أحب أن يناديني بذلك الاسم. فقلت له: إن ما حدث لحصانك لأمر سيئ للغاية.

قال: لا مكان للحيوانات في هذا العالم... ما نوع السيارة التي علي شراؤها يا ترى؟

قلت: هل ستشتري سيارة؟

فقال: كنت أفكر في هذا الأمر منذ عدة دقائق.

قلت: كنت أظن أنك لا تملك نقودا... كنت أظنك فقيرا.

قال: هذا ما أبدو عليه. يظنني الناس أيضا مجنونا.

قلت: ما حسبتك مجنونا، ولا غنيا أيضا.
فقال: حسن. إني لكذلك.
قلت: أتمنى لو كنت غنيا.
قال: ولمَ؟
قلت: كنت أريد الذهاب إلى صيد السمك في مندوتا طيلة السنوات الثلاث الماضية، وعليَّ أن أحصل على معدات الصيد وسيارة لأصل إلى هناك.
فسألني الهندي قائلا:
- هل تستطيع قيادة السيارة؟
فأجبته: - أنا أستطيع قيادة أي شيء.
فقال: وهل قدت سيارة من قبل؟
أجبت: ليس بعد. لم أحصل عليها حتى الآن. كما أن دين عائلتي يحرم علي أن أسرق سيارة.
قال: أتزعم أنك تعتقد أنك تستطيع الدخول في السيارة وقيادتها؟
قلت: هذا صحيح.
فقال: أتذكر ما قلته لي في ذلك المساء على عتبات المكتبة العامة؟
قلت: بخصوص العصر الحديث؟
قال: نعم.
قلت: أذكر.
فقال: حسن... إن الهنود يولدون وهم يعرفون ركوب الخيل والسباحة والتجديف والقنص وصيد السمك، في حين يولد الأمريكيون وهم يعرفون قيادة السيارات.

قلت: أنا لست أمريكيا.

قال: أعلم ذلك. أنت أرميني، أتذكر ذلك. لقد سألتك فقلت إنك أرميني ولدت في أمريكا. أنت في الرابعة عشرة من عمرك، وأنت تعلم أنه سيكون بإمكانك قيادة سيارة في اللحظة التي تدخل فيها. إنك أمريكي وإن كانت بشرتك سمراء كبشرتي.

قلت: السياقة ليست أمرا صعبا. إنها أسهل من ركوب الحصان.

قال: حسن كما تقول. هل تقبل خدمتي سائقا إن ذهبت إلى الشارع واشتريت سيارة؟

قلت: طبعا.

فقال: وكم سيكون راتبك؟

قلت: أتقصد أنك ستدفع لي أجرا على القيادة؟

قال: طبعا.

قلت: إنه للطف منك. لكني لا أريد نقودا من أجل قيادة سيارة.

فقال: قد تكون بعض الرحلات طويلة.

قلت: كلما كانت الرحلة أطول كانت أفضل.

قال: ألا تبالي بالتعب؟

قلت: لقد ولدت هنا في هذه القرية القديمة الصغيرة.

فقال: ألا تحبها؟!

قلت: أحب الجبال والجداول والبحيرات الجبلية.

قال: وهل ذهبت إلى الجبال؟

قلت: ليس بعد. لكني سأصل إليها ذات يوم.

فقال: هكذا إذن. وما نوع السيارة التي ترى أن أشتريها؟

قلت: ما رأيك في سيارة «فورد»؟

فقال: وهل هي أفضل سيارة؟

قلت: وهل تريد أفضل سيارة؟

قال: أليس علي أن أقتني الأفضل؟

قلت: لا أدري. الأفضل غالية الثمن.

قال: وما السيارة الأفضل؟

قلت: يعتقد البعض أن «الكاديلاك» هي أفضل سيارة، والبعض الآخر يرى أن «الباكارد» هي الأفضل. كلتاهما جيدتان. لا أدري أيهما أفضل «الباكارد» تبدو وهي تسير في الشارع جميلة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الكاديلاك. لقد رأيت الكثير من هذه السيارات الجميلة تسير في الطريق.

قال: وكم ثمن «الباكارد»؟

قلت: في حدود ثلاثة آلاف دولار. ربما أكثر بقليل.

فقال: هل بإمكاننا شراء واحدة في الحال؟

كان يبدو مجنونا، لكني أعلم أنه ليس كذلك.

فقلت له: اسمع يا سيد لوكوموتيف. أتريد حقا شراء سيارة «باكارد» في الحال؟

قال: أنت تعلم أن حصاني قد مات منذ بضع دقائق، ولدي المال الكثير.

عموما أعتقد أنه مجنون. هذا ما فكرت فيه.

فقلت: من أين تأتي بكل هذا المال؟

قال: أملك بعض الأراضي في «أوكلاهوما»... أملك خمسين ألف فدان تقريبا.

قلت: وهل تساوي الكثير؟

قال: لا. إنها لا تساوي شيئا باستثناء عشرين فدانا. ففي هذه الأفدنة العشرين لدي بعض آبار النفط، لي أنا وأخي.

قلت: كيف وصلتم يا أفراد أوجيبواي إلى أوكلاهوما؟ كنت دائما أعتقد أن هذه القبيلة تعيش في الشمال، حول البحيرات العظمى!

قال: هذا صحيح، اعتدنا أن نعيش هناك، لكن جدي انتقل إلى الغرب حين انتقل الجميع إلى هناك.

قلت: آه.

فقال: لا أحد في هذا العالم يعلم أن لدي مالا سواك. أتدري من أين يمكن أن نشتري سيارة مباشرة؟

قلت: إن معرض سيارات الباكارد في آخر الشارع، بالقرب من المكتبة العامة.

قال: حسن!... إن كنت متأكدا أنك لا تمانع في قيادة السيارة لي فلنذهب ونشتر واحدة، ولتكن ساطعة اللون... حمراء إن أمكن. إلى أين تريد أن نذهب بها أولا؟

قلت: ما رأيك في الذهاب لصيد السمك في مندوتا؟

فقال: هيا بنا... سأراقبك وأنت تصطاد. من أين يمكننا شراء عدة الصيد لك؟

قلت: بالقرب من هنا، في المتجر الذي يقع على الزاوية.

اشترى الهندي لي عدة صيد بسبعة وعشرين دولارا، ثم ذهبنا إلى معرض باكارد، ولم يكن لديهم اللون الأحمر. لكن كانت هناك باكارد جميلة خضراء اللون.

قال: أتظن أنك تستطيع قيادة هذه السيارة الكبيرة؟

قلت: أعلم أنني قادر على ذلك.

فالتفت الهندي إلى مدير المعرض، جيم لويس، وقال له: سأشتري هذه السيارة فقال له جيم: أتعني أنك ستدفع ثلاثة آلاف ومائتين وسبعة عشر دولارا وخمسة وستين سنتا ثمنا لها؟

فقال: نعم... إنها جاهزة للقيادة، أليس كذلك؟

فرد جيم: طبعا... سأطلب من العمال تنظيفها وملئها بالبنزين. لن يستغرق ذلك أكثر من عشر دقائق. إن تتفضل بالدخول إلى المكتب سأتم الصفقة مباشرة.

ودخل جيم والرجل الهندي إلى مكتب جيم.

وبعد ثلاث دقائق تقريبا جاءني جيم وقال: من هذا الرجل يا آرام؟ كنت أظن أنه مجنون، ولكني هاتفت مصرفه في أوكلاهوما فأخبروني أنه يملك أكثر من مليون دولار. هل تعرفه؟

قلت: أخبرني أن اسمه لوكوموتيف (القاطرة) ٣٨. إلا أن هذا ليس اسما.

قال جيم: هذا اسمه الهندي. لدينا اسمه الأمريكي الكامل في الأوراق الثبوتية.

هل تعرفه؟

قلت: لقد كنا نتحادث كل يوم منذ أن وصل إلى المدينة على حصانه الذي مات صباح اليوم. لكني لم أعلم أن لديه أي نقود.

قال جيم: يقول إنك ستقود له السيارة. هل أنت واثق أنك الرجل الذي سيقود سيارة كبيرة كهذه يا بني؟

قلت: مهلا يا سيد لويس، لا تحاول تفويت فرصة العمر عليّ. إنني أستطيع قيادة سيارة الباكارد الكبيرة هذه كأي شخص آخر في هذه المدينة.

فقال جيم: لا أقصد تفويت الفرصة عليك. لكني لا أريد أن تخرج من هنا وتدهس ستة أشخاص أو سبعة، هل تعرف أي شيء عن القيادة.

قلت: لا أعرف أي شيء حتى هذه اللحظة، ولكن سرعان ما سأعرف.

قال: حسن، دعني أساعدك.

فدخلت السيارة وجلست خلف المقود وجلس جيم إلى جانبي.

قال جيم: نحن من الآن فصاعدا صديقان يا بني. علي أن أشكرك لأنك أتيت بالسيد الهندي إلي.

قلت: لقد أخبرني أنه يريد أفضل سيارة في السوق، وأنا كنت دائما أحلم بقيادة باكارد، والآن كيف أقودها.

فقال: لنرَ.

ونظر إلى قدمي قائلا:

- بني إن قدميك لا تصلان إلى الدواسات.

قلت: لا تعبأ بذلك. اشرح لي فقط كيف تعمل هذه الأدوات.

وفيما كان العمال ينظفون السيارة ويملأون الخزان وقودا، شرح لي جيم كل شيء. وعندما خرج الهندي ركب السيارة وجلس في المقعد الخلفي، كما طلبت منه.

وقال الهندي لجيم لويس:

يقول إنه يعرف كيف يقود وأنا أصدق ذلك أيضا.

فقال جيم: آرام يعرف القيادة تماما.

وصاح بالغلمان كي يفسحوا الطريق بما فيه الكفاية لأنطلق بالسيارة.

أدرت السيارة على مهل، وانطلقت خارج المحل بسرعة خمسين ميلا في الساعة، وكان جيم يركض وراءها صائحا: تمهل... تمهل يا بني، خفف السرعة حتى تصل إلى الطريق.

لم يكن الهندي منزعجا على الإطلاق، على رغم أني جعلته يهتز في المقعد الخلفي. لم أتعمد ذلك. كل ما في الأمر أنني لم أكن أعرف طريقة القيادة.

وقال لي: إنك سائق ماهر يا ويلي. أنت أمريكي وقد ولدت تعرف القيادة.

قلت: سنصل مندوتا في غضون ساعة. وسوف ترى كيف أصطاد السمك هناك.

فقال: كم تبعد مندوتا؟

قلت: حوالي تسعين ميلا.

فقال: من الصعب قطع هذه المسافة في ساعة. دعنا نقطعها في ساعتين، إننا نمر بمناظر جميلة كثيرة أريد رؤيتها عن قرب.

قلت: حسن... إلا أني بالتأكيد كنت أريد الوصول إلى هناك بسرعة كي اصطاد السمك.

فقال: حسن. انطلق بأقصى ما تستطيع من سرعة. لكني أتوقع منك أن تخفف السرعة أحيانا حتى أستطيع مشاهدة الريف. لا أستطيع رؤية شيء، حتى اللوحات الإرشادية لا أستطيع قراءتها.

قلت: سأقود ببطء إن كنت ترغب في ذلك.

قال: لا. دعها تنطلق. دعها تنطلق بأقصى سرعة تستطيعها.

بلغنا مندوتا بعد ساعة وسبع عشرة دقيقة، ووصلت بالسيارة إلى حافة النهر. فسألني الهندي إن كنت أستطيع كشف سقف

السيارة بحيث يجلس فيها ويتسنى له مشاهدتي وأنا أصطاد السمك. لم أستطع فعل ذلك، لكني تمكنت من كشف السقف بعد عشرين دقيقة! وظللت أصطاد طيلة ثلاث ساعات، وسقطت في الماء مرتين، وانتهى بي الأمر إلى اصطياد سمكة صغيرة.

قال لي الهندي:

أنت لا تعرف مبادئ الصيد.

قلت: وما الخطأ الذي ارتكبته؟

قال: كل شيء. هل قمت بالاصطياد من قبل؟

قلت: كلا.

قال: هذا ما ظننته.

قلت: وما الخطأ الذي ارتكبته؟

قال: إنك تصطاد بالسرعة نفسها التي تقود بها السيارة.

قلت: وهل هذا خطأ؟

قال: إنه ليس سيئا على وجه الدقة. لكن ذلك يعيقك عن اصطياد السمك. ولسوف تظل تسقط في الماء.

قلت: أنا لا أسقط، لكن السمك يجرني إلى الماء.

اصطدت سمكة صغيرة أخرى، وسألته إن كان يرغب في العودة إلى المنزل.

أجاب أنه يرغب في ذلك إذا كانت تلك هي رغبتي أيضا.

لذلك حزمت أدوات الصيد والسمكتين ودخلت السيارة وعدنا أدراجنا إلى المدينة. واصلت - في ذلك الصيف - قيادة الباكارد الكبيرة للهندي «لوكوموتيف ٣٨» ذي الأصل الأوجيبوايزي خلال إقامته في أحد الفنادق في المدينة، وكنت أحاول أن أعلمه القيادة،

لكن ذلك كان مستحيلا بالنسبة إليه كما أخبرني. وتجولت في ذلك الصيف في منطقة وادي سان جوكان، وقد جلس الهندي خلفي، وأخبرني أنه باستطاعتي أن أذهب بالسيارة حينما أرغب، لذا كان المكان الذي أقصده إما لصيد السمك وإما للقنص.

وكان يزعم أني لا أفقه شيئا في الصيد والقنص، لكنه كان سعيدا وهو يراني أحاول. ولم يسخر مني على رغم أني لم أتحسن.

ذات يوم من أيام نوفمبر وصل أخوه من أوكلاهوما. وفي اليوم التالي، حين ذهبت إليه في الفندق أخبروني أنه غادر مع أخيه إلى أوكلاهوما. فسألتهم:

- وأين الباكارد؟

فأجاب البواب:

- لقد أخذا الباكارد.

فقلت: ومن كان يقودها؟

رد البواب: الهندي.

قلت: لكنهما هنديان، كلاهما. أي الأخوين تولى قيادتها؟

قال: الهندي الذي كان يقيم هنا.

قلت: أأنت متأكد من ذلك؟

فقال: رأيته بأم عيني حين دخل السيارة وانطلق بها.

قلت: أتريد أن تخبرني أنه كان يستطيع القيادة؟

قال: يبدو أنه كان قادرا على ذلك. كان - بالنسبة إلي - سائقا جيدا.

قلت: شكرا.

وفي طريق العودة إلى المنزل، أدركت أن الهندي قد أراد ببساطة إيهامي بأنه لا يعرف القيادة ليمكنني من ذلك كامل الوقت، كي أشعر بالسعادة. كان مجرد شاب أتى إلى المدينة ممتطيا حصانا. ليس لديه ما يقوم به، واستغل الفرصة ليتسلى مع صبي من المدينة ليس لديه ما يقوم به هو الآخر. هذا هو تفسيري الوحيد لما حدث، رافضا الفكرة العامة عنه بأنه مجنون.

كان هذا هو التفسير الوحيد الممكن. إن لم يكن المرء يصدق - مع الناس عامة - أنه كان مجنونا.

١٢- نصيحة ريفية قديمة للمسافر الأمريكي

سافر عمي مالك ذات سنة من فريزنو إلى نيويورك. وقد زاره عمه جارو قبل أن يصعد إلى القطار.

قال له الشيخ: عندما تصعد إلى القطار اختر مقعدك بعناية، واجلس ولا تنظر حولك.

قال عمي مالك: نعم سيدي.

ثم قال الشيخ: سيأتيك -بعد دقائق من انطلاق القطار- رجلان يطلبان منك تذكرتك. فلا تسلمها إليهما. فهما في حقيقة الأمر لا يعملان في شركة القطار.

فسأل عمي: وكيف لي أن أعرف ذلك؟

قال الشيخ: ستعرف ذلك. فأنت لم تعد طفلا.

قال عمي: نعم سيدي.

فقال الشيخ: في طريقك إلى عربة المطعم. ستصطدم بك عمدا فتاة جميلة جدا. وتلقي بذراعيها حول عنقك. ستعتذر لك، وستبدي رغبتك بأن تكون دمثا معها. لكن تابع سيرك وتناول طعامك. اطلب أفضل المأكولات. وإن جلست الفتاة الجميلة قبالتك، فلا تنظر في عينيها، وإن تحدثت فلا تستمع إليها.

قال عمي: نعم سيدي.

قال الشيخ: هذه هي الطريقة الوحيدة للتخلص من الأمر.

فسأله عمي: التخلص من ماذا؟

قال الشيخ: التخلص من المتاعب. لقد سافرت من قبل، وأدرك عما أتحدث.

قال عمي: نعم سيدي.

قال الشيخ: فلنكتف بما قلنا في هذا الشأن.

قال عمي: نعم سيدي.

قال الشيخ: لنكف عن الحديث في هذا الموضوع. لقد انتهى الأمر. لدي سبعة أبناء. إن حياتي طيبة ومليئة بالتجارب. أنا أملك أرضا وكروما وأشجارا ومواشي ومالا. لا يمكن للمرء أن يملك كل شيء، إلا لمدة يوم أو يومين في عمره.

قال عمي: نعم سيدي.

قال الشيخ:ستمر، في طريق عودتك إلى مقعدك بعد تناول العشاء، بعربة المدخنين. وستجد هناك أشخاصا يلعبون لعبة الحظ. سترى ثلاثة رجال في منتصف العمر يلبسون خواتم تبدو ثمينة. سيبتسمون لك بلطف، وسيدعوك أحدهم إلى مشاركتهم اللعبة. فارفض.

قال عمي: نعم سيدي. وأضاف: شكرا جزيلا.

قال الشيخ: ثمة أمر آخر. عندما تقصد سريرك ليلا، أخرج نقودك من ملابسك وضعها في حذائك، وضع الحذاء تحت الغطاء، وإياك أن تخلد إلى النوم.

قال عمي: نعم سيدي.

قال الشيخ: هذا كل شيء.

انصرف الشيخ. وفي الغد ركب عمي مالك القطار، وسافر إلى نيويورك عابرا أمريكا. وكان موظفا التذاكر يعملان في شركة

القطار، ولم تجلس الفتاة الجميلة إلى الطاولة في عربة المطعم قبالة عمي، ولم تكن هناك أي لعبة تجري في عربة المدخنين. وقد وضع عمي نقوده في حذائه ووضع حذائه تحت الأغطية ولم يخلد إلى النوم طوال الليل في الليلة الأولى. أما في الليلة الثانية فقد كف عن تلك الحماقة.

وفي اليوم الثاني، جلس عمي إلى طاولة في عربة المطعم حيث كانت سيدة تجلس هناك. وبدأ هو نفسه اللعب في عربة المدخنين. وقبل أن يصل القطار إلى نيويورك كان عمي قد تعرف إلى جميع من في القطار، وكانوا هم قد تعرفوا إليه.

كانت الرحلة ممتعة جدا.

وعندما عاد عمي مالك من نيويورك زاره عمه الشيخ جارو مرة أخرى. وقال له: تبدو لي على أحسن حال. هل اتبعت ما أمرتك به؟

قال عمي: نعم سيدي.

فنظر الشيخ بعيدا في الفضاء. وقال: يسرني أن يستفيد أحد من خبرتي.

١٣- العربي البائس المسكين

كان خالي خوسروف رجلا بالغ النفوذ دائم الحزن. كان له في أحد الأعوام صديق صغير البنية، صامت كالصخرة، جاء من البلاد القديمة. وكان هذا الرجل عربيًا يدعى«خليل». ولم يكن أكبر حجما من طفل في الثامنة من عمره. لكنه كان مثل خالي خوسروف ذا شاربين كثيفين. ولعله كان في بداية الستينيات من عمره. لكنه يبدو - رغم شاربيه - أقرب في مشاعره إلى الطفل منه إلى الرجل. كانت عيناه عيني طفل، لكنهما تبدوان مملوءتين بسنوات من الذكريات، سنوات عديدة من الانفصال عما يحبه حبا جما، كوطنه ووالده ووالدته وأخيه وحصانه ربما، أو أي شيء آخر. وكان شعر رأسه ناعما كثيفا أسود مفروقا إلى الجهة اليمنى، كما تعلم الأطفال الصغار - الذين وصلوا أمريكا للتو من وطنهم - أن يسرحوا شعرهم.

في الحقيقة كان رأسه - باستثناء شاربيه - كرأس تلميذ، وكذلك الحال بالنسبة إلى جسمه - باستثناء كتفيه العريضتين. ولم يكن يستطيع التحدث بالإنجليزية، ولم يحفظ إلا بعض الكلمات الأرمينية، لكنه نادرا ما كان يتحدث على أي حال. وعندما يتحدث كان يتكلم بصوت لا يبدو صادرا من ذاته، بقدر ما هو صادر من بلاده القديمة. كان يتحدث كما لو كان آسفا لأنه يتحدث، وكما لو كان من المحزن محاولة قول ما لا يمكن التعبير عنه بالكلمات، وكما لو أن كل ما يمكن قوله لن يزيده إلا حزنا.

لم يكن أحد منا يعرف كيف كسب صداقة خالي خوسروف، الرجل الذي كان عليه قول شيء ما على الأقل. كان هناك النزر القليل الكافي الذي نتعلمه من كثيري الكلام، فضلا عن أولئك الذين نادرا ما يتكلمون ليأمروا من يتكلم أن يصمت - كما في حال خالي خوسروف.

ومن الأرجح أن يكون خالي خوسروف قد التقى به في نادي آراكس، حيث كان يلتقي الرجال لممارسة لعبة من ألعاب بلدهم الأصلي تسمى «الطاولة». وكان خالي يكره الخسارة في اللعب، لكنه يكره أيضا كل من لا يتقبل الخسارة، ويصيح في وجهه قائلا: «ما الذي يغضبك؟ إنها لعبة. أليست كذلك؟ هل تخسر حياتك بخسارتها؟» مع أنه يخسر هو نفسه حياته حين يخسر جولة. لكنه لا يعتقد أن أي شخص آخر يمكن أن يأخذ اللعبة مأخذ الجد كما يأخذها هو، بل كان يعتقد أن اللعبة عند الآخرين ليست إلا مجرد لعبة. أما بالنسبة إليه فإن اللعبة هي الحياة نفسها.

لقد كان نادي آراكس مكانا شهيرا في ذلك العهد، ومازال كذلك إلى اليوم، رغم أن كثيرا ممن كان يرتاده قد مات منذ عشرين عاما. وكانت غالبية رواد هذا المكان من الأرمن، لكن آخرين كانوا يرتادونه أيضا. وهم كل من كان يتذكر وطنه، ويتمتع بطعام الوطن وخمره وأغانيه وحكاياته، وكل من يرغب في أن يحل بمكان شبيه بوطنه، وإن بعد عنه آلاف الأميال.

كان خالي خورسوف - في معظم الأحيان - يصل هذا المكان في حدود الثالثة بعد الزوال. ويظل واقفا برهة ملقيا نظرة عابرة على الحضور. ثم يجلس في زاوية وحيدا. وعادة ما يظل جالسا

ساعة دون حراك. ثم ينصرف وقد اشتد غضبه، رغم أن لا أحد خاطبه. وكان يقول: «يا للصغار المساكين. يا لليتامى الصغار المساكين البؤساء!». وكان من المحال ترجمة عبارة «مسكين وبائس» إلى الإنجليزية. ورغم ذلك فلا شيء أكثر حزنا من «الفقير والبائس» في الحياة والعالم. وأغلب الظن أن خالي خوسروف لاحظ - وهو جالس ذات يوم في النادي - ذلك العربي، ورأى فيه رجلا جديرا بالاهتمام. وكان الرجل جالسا يلعب «الطاولة» بكتفيه العريضتين فوق الطاولة، ورأسه الطفولي مفعم بالفهم والحزن، ولعل خالي خوسروف قد رآه بعد انتهاء اللعبة ينهض ويقف، فلم يكن حجمه أكبر من حجم طفل.

ومن المحتمل أن يكون هذا الرجل العربي قد جاء إلى نادي آراكس وهو لا يعرف خالي خوسروف، ولاعبه الطاولة وخسر، ولم ينبس ببنت شفة. وكيفما كانت بداية صداقتهما، وكيفما كان التفاهم بينهما، ومهما كانت الأمور التي اشتركا بها، فإنهما كانا يلتقيان أحيانا في منزلنا. وكنا مسرورين باستضافتهما.

نسي خالي خوسروف في المرة الأولى التي استضاف فيها الرجل العربي في منزلنا أن يعرفنا به. وظنت أمي أنه من أهل بلدتنا، أو ربما من أبناء عمومتنا، رغم أنه أكثر سمرة نوعا ما، وأقل حجما من أغلب أفراد عائلتنا.

ولم يجلس العربي يومئذ إلا بعد أن طلبت منه أمي ست مرات أن يعتبر نفسه من أهل البيت، واعتقدت أنه ربما لم يتمكن من سماعها.

كلا. لابد أنه قادر على السماع، فقد كان يركز في الإصغاء. ولعله لم يفهم طريقتنا في التحدث بالأرمينية. وسألته أمي إلى

أي مدينة ينتمي فلم يجب. وقال لها خالي خوسروف بصوت خافت: «إنه يتيم صغير مسكين وبائس».

وظنت أمي لوهلة أن العربي ربما يود التكلم. لكن سرعان ما اتضح أن لا شيء يجرح إحساسه - مثله مثل خالي خوسروف - أكثر من التكلم. كان يستطيع التكلم إذا كان ذلك ضروريا، لكن ببساطة لم يكن في الحقيقة ما يقال.

وطلبت مني أمي مغادرة الغرفة قائلة: إنهما يرغبان في الحديث.

قلت: الحديث ؟

قالت: إنهما يرغبان في أن يكونا وحدهما.

جلست عند الطاولة في الغرفة المجاورة، وبدأت أقلب صفحات كتاب قديم كنت قد قرأته سابقا كلمة كلمة، ولا بد أني تصفحته بسرعة على أي حال. فصاح خالي خوسروف قائلا: اهدأ أيها الولد، اهدأ.

ومكث الرجلان معا طيلة ساعة، ثم غادر العربي المنزل دون أن ينبس بكلمة. فدخلت وجلست حيث كان يجلس. وقلت: ما اسمه ؟

فقال خالي خوسروف: اصمت.

قلت: حسن.. لكن ما اسمه؟

كان خالي خوسروف شديد الغضب لأنه يعرف ماذا يفعل. فنادى صائحا كما لو أن أحدا بصدد قتله: «مريم. مريم». فهرعت أمي إلى الغرفة قائلة: ما الأمر؟

فقال: خالي خوسروف: أخرجيه من فضلك.

فقالت: ما الخطب؟

قال: إنه يريد معرفة اسم العربي.

قالت: حسن... إنه طفل، وهو يريد معرفة الأشياء، أخبره.

فصاح خالي خوسروف قائلا: هكذا إذن... أنت أيضا ! أختي أنا، أختي أنا الصغيرة المسكينة البائسة؟!

قالت أمي: حسن... ما اسم العربي؟

فقال خالي خوسروف: لن أذكره. هذا كل شيء. لن أذكره.

ونهض من مكانه وغادر المنزل. ففسرت أمي ذلك: بأنه لا يعرف اسم الرجل.

بعد ثلاثة أيام حين أتى خالي خوسروف إلى منزلنا ومعه العربي، جاء نحوي وقال: اسمه «خليل»... والآن انصرف.

غادرت المنزل وانتظرت وصول أحد أبناء عمي في الخارج. وحين لم يأت أحد بعد عشر دقائق، ذهبت إلى منزل ابن عمي مراد - وأمضينا ساعة نتجادل حول من سيكون منا الأقوى في السنوات الخمس القادمة.

وعندما وصلت المنزل، كان الرجلان قد انصرفا. فسألت أمي: عن ما دار حديثهما. قالت: لم أصغ إليهما.

قلت: ألم يتحدثا البتة؟

قالت: لا أدري.

قلت: إنهما لم يتحدثا؟

قالت: بعض الناس يتحدث عندما يكون لديه ما يقول. وبعض الناس ليس كذلك.

قلت: كيف تستطيعين التحدث إن لم تقولي أي شيء؟

قالت: نتحدث من دون كلمات. إننا نتحدث دوما من دون كلمات.

قلت: حسن... ما فائدة الكلمات إذن؟

قالت: هي ليست ذات فائدة عظمى في أغب الأحيان. وهي في الغالب لا تفيد إلا في إخفاء ما تريد قوله حقا، أو ما لا تريد أن يعرف.

قلت: حسن... وهل يتحدثان في العادة؟

قالت: أظن أنهما يتحدثان. إنهما لا يفتحان فميهما البتة. لكنهما يتحدثان طوال الوقت. إن كليهما يفهم الآخر دون حاجة إلى الكلام، فليس لديهما ما يخفيانه.

قلت: وهل يعرفان حقا عن ما يتحدثان؟

قالت: طبعا.

قلت: حسن... عمَ يتحدثان؟

قالت: لا أستطيع أن أخبرك بذلك. لأن ذلك لا يقال بالكلمات. لكنهما يعرفانه.

كان خالي خوسروف والعربي يأتيان إلى منزلنا من وقت إلى آخر طيلة عام، ويبقيان معا أحيانا ساعة، وأحيانا أخرى ساعتين. وذات مرة صاح خالي خوسروف في وجه العربي قائلا: «لاشيء... قلت لك» رغم أن العربي لم ينطق بكلمة. لم ينطق العربي، وفي معظم الأحيان لم يقولا شيئا إلى أن يحين وقت الانصراف. ثم كان خالي خوسروف يقول بهدوء: «يا لليتامى المساكين البؤساء!».

واكتشفت ذات يوم حين أتى خالي خوسروف إلى منزلنا بمفرده أن العربي لم يزر بيتنا منذ عدة أشهر. فقلت: «أين العربي؟».

قال: أي عربي؟

قلت: ذاك العربي الصغير المسكين البائس، الذي اعتاد المجيء معك إلى هنا. أين هو؟

فصاح خالي خوسروف قائلا: يا مريم.

فقلت في نفسي : ما الخطب؟ ماذا فعلت الآن؟

فصاح ثانية: مريم. مريم.

فأتت أمي إلى الغرفة قائلة: ما الأمر؟

قال خالي خوسروف: من فضلك. إنه ابنك وأنت أختي الصغرى. اصرفيه من فضلك. إني أحبه من أعماق قلبي. إنه أمريكي. لقد ولد هنا وسيكون رجلا عظيما ذات يوم. لا أشك في ذلك. اصرفيه من فضلك.

فقالت أمي: لمَ؟ ما الأمر؟

قال خالي: ما الأمر؟ ما الأمر؟ أنا أحبه، ولكنه يتحدث ويسأل.

قالت: آرام.

كان خالي خوسروف غاضبا مني، وكنت أنا أيضا غاضبا منه.

قلت: أين العربي؟

التفت خالي خوسروف إلى أمي وقال: انظري. إنه ابنك، وهو ابن أختي من دمي. أليس كذلك؟ إننا جميعا مساكين وبؤساء إلا هو.

قالت أمي: آرام.

قلت: حسن... إذا لم تتكلم فلن أفهم. أين العربي؟

فغادر خالي خوسروف المنزل دون أن ينطق بكلمة.

قالت أمي: لقد مات العربي.

قلت: متى أخبرك بذلك؟

قالت: لم يخبرني.

قلت: وكيف عرفت ذلك؟

قالت: لا أدري. لكنه مات.

ولم يعد خالي خوسروف لزيارة منزلنا لعدة أيام. وظننت لوهلة أنه قد لن يعود لزيارتنا أبدا. وحين عاد أخيرا، وقف في الغرفة وقبعته على رأسه وقال: لقد مات العربي. مات يتيما في عالم غريب، بعيدا عن وطنه بستة آلاف ميل. كان يرغب في العودة إلى بلده والموت هناك. أراد رؤية أبنائه مرة أخرى. أراد التحدث إليهم ثانية. كان يرغب في سماع أصواتهم، لكنه كان مفلسا، وقد تعود على التفكير فيهم طوال الوقت. لكنه الآن ميت... فانصرف الآن. إني أحبك.

أردت أن ألقي مزيدا من الأسئلة عن أبناء العربي، عن عددهم وعن مدة ابتعاده عنهم وغير ذلك. لكنني قررت زيارة ابن عمي مراد لنرى من منا أقوى الآن من الآخر. لذلك انصرفت دون أن أنبس بكلمة. وهو ما قد أبهج خالي خوسروف ربما بهجة عظيمة، وجعله يشعر بأنه ثمة أمل فيَّ على كل حال.

١٤- عبرة للضالين

إن كل ما تراه من الحافلة وأنت مسافر من مدينة رينو إلى مدينة سولت ليك هو الصحراء، وكل ما تشعر به في شهر أغسطس هو الحرارة الجافة. تبدو الصحراء أحيانا بيضاء، وأحيانا أخرى بنية اللون. وعند غروب الشمس يتغير اللون من الأبيض أو البني إلى اللون الأصفر، ثم إلى الأسود. ثم يحل الليل وعندئذ تصبح الصحراء في ألطف أحوالها. حين تجتمع الصحراء والليل تشعر بسكون عميق.

وهذا ما تتذكره مرارا.

أعرف كل هذا لأني سافرت ذات مرة بالحافلة من رينو إلى مدينة سولت ليك، في طريقي إلى مدينة نيويورك.

أمرني عمي جيكو بمغادرة المدينة والذهاب إلى نيويورك، فقد قال لي: لا تبق في هذه المدينة الصغيرة. اذهب إلى نيويورك. اعلم يا آرام أنها مذهلة.

هذا ما حدث حين سافرت بالحافلة من رينو إلى مدينة سولت ليك.

كان ريفا لم يسبق أن رأيته قط، حيث الأرض قاحلة شاسعة مقفرة. أبقيت عيني مفتوحتين ليل نهار، مشاهدا هذا الريف. لم أشأ أن أمر بريف مثل هذا دون أن أكتشف كل ما أستطيع اكتشافه فيه.

غادرت الحافلة رينو متجهة إلى الصحراء، من أضواء المدينة الساطعة إلى الصحراء ليلا. وفكرت في تلك الأضواء الساطعة

وفي الصحراء، من منتصف الليل حتى الصباح. ورغم ذلك لم أجد ما يكفي أن أذكره ولو ببضع كلمات.

عندما توقفت الحافلة صباحا نزلت وألقيت نظرة فاحصة. فلم أر غير الأرض والسماء والشمس وهي تشرق. لم أستطع التعبير عن ذلك، حيث لم يكن هناك ما يذكر. هذا كل ما في الأمر. لا شيء على الإطلاق. فلا شوارع ولا بنايات ولا زوايا ولا بوابات ولا أبواب ولا نوافذ ولا لوحات إرشادية. لا شيء.

لقد أمرني عمي جيكو ألا أبقى في بلدة صغيرة كالبلدة التي ولدت فيها. والآن لا أستطيع الانتظار حتى أخرج من هذه الصحراء لأنتقل إلى مدينة كبيرة، وأصبح قادرا على فهم الأشياء مرة أخرى. وبدأت أفكر في أنه سيكون من الأفضل لعمي جيكو أن يغادر بلدتنا الصغيرة ويعبر هذه الصحراء بنفسه. فلربما لن يكون شديد الثقة بأي شيء لو أحاطت به الصحراء ليلا ونهارا.

فكرت في أنني لا أستطيع فهم أي شيء في مكان كهذا. ولم أشعر بالرغبة في الإحساس بالحكمة على الاطلاق، وأحسست بأنني وحيد أيضا. وهذا ما جعلني أحاول التحدث مع الفتاة الوحيدة الموجودة في الحافلة. فقلت لها: ما اسم هذا المكان؟

كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها على الأقل. ولم تكن جميلة على الإطلاق. وأجابت: أي مكان؟

قلت: كل هذه الأرض التي تحيط بنا.

قالت: لا أدري.

واستمر حديثنا بهذه الطريقة إلى وقت متأخر بعد ظهر اليوم التالي، حين سألتني عن الوقت، فقلت لها إني لا أدري.

لم أكن أعرف حتى في أي يوم كنا. وبدأت أكتشف أن كل ما أعرفه هو أني لا أعرف شيئا، وأني أريد الوصول إلى مدينة سولت ليك بأسرع وقت ممكن؛ فأستطيع رؤية الشوارع والأماكن مرة أخرى، ورؤية الناس يتجولون، وأستطيع العودة ربما إلى القراءة التي كانت عديمة الجدوى في الصحراء.

قلت في نفسي: لأصل إلى مدينة مرة أخرى. وسأكون حكيما كالمسافر الذي بالجوار، لأخرج فقط من هذه الصحراء وسأبدأ في الضحك في كل جانب من هذا المكان.

حسن. لقد كنت مخطئا. فحين وصلت إلى مدينة سولت ليك لم أستطع الحصول على غرفة بخمسين سنتا، أو محلا أشتري منه وجبة كبيرة بخمسين سنتا. وشعرت بالتعب والجوع والنعاس. وكنت غاضبا من الناس في الشوارع، والمباني هناك، ووددت لو لم أغادر بلدتي قط.

دفعت دولارا أجرة غرفة صغيرة في فندق قديم. كانت أتعس غرفة حاولت الإقامة فيها. لكني بقيت فيها إلى أن تمكنت من رؤية كل أنواع المساوئ في تاريخ هذا العالم، وسماع أشد الأصوات إخافة. لم أتحرك طيلة ساعتين من الكرسي الموجود في وسط الغرفة؛ لأني كنت واثقا من أن أحدا ما سيقبض علي ويقتلني قبل أن أتمكن من بلوغ الباب أو النافذة. لا أعرف كيف خرجت منها على قيد الحياة، ولكني خرجت منها بسلام.

سرت في شوارع مدينة سولت ليك وعثرت على محل يمكن الحصول فيه على وجبة صغيرة بربع دولار.

بعد العشاء، عدت إلى تلك الغرفة الصغيرة في ذلك الفندق الصغير. واستلقيت على السرير دون أن أنزع أي قطعة من ثيابي، ولا حتى حذائي أو قبعتي. وقبل أن أطفئ النور حاولت النهوض من السرير والذهاب إلى الباب. فعلت ذلك بقفزة واحدة إلى الباب، وفي أقل من دقيقة إلى الشارع. لكني شعرت بتحسن كبير في الصباح.

استيقظت في الساعة الخامسة لأني لم أشأ أن أتخلف عن الحافلة التي ستغادر المدينة في الساعة التاسعة والنصف.

في التاسعة والربع كنت أقف في موقف الحافلات، حين ناولني رجل طويل جدا، كئيب المحيا، في الخمسين من العمر تقريبا، كتيبا صغيرا وقال: بني هل نلت الخلاص؟

لم أر قط رجلا بمثل تلك الهيئة الكئيبة. كان فارع الطول، نحيفا جدا، مليئا بالإيمان. واعتقدت أنه سيطلب مني نقودا، لكن كل ما فعله هو أن ناولني ذلك الكتاب الصغير وسألني إن كنت من الناجين. وكان عنوان الكتيّب هو «عبرة الضالين».

قلت: لا. لست من الناجين لكني راغب في ذلك.

قال: أستطيع أن أنجيك يا أخي.

قلت: سأغادر المدينة خلال خمس عشرة دقيقة.

قال الرجل: لا بأس في ذلك. لقد نجيت رجلا ذات مرة في أربع دقائق.

قلت: إنه عمل سريع. ماذا علي أن أفعل لكي أنجو؟

قال الرجل: بني. ليس عليك أن تفعل شيئا. إنك لا تعلم كم هو قريب من الخلاص كل شخص على قيد الحياة، أي شخص تفكر

فيه. قبل أن أصبح من الناجين كنت أحب الثياب الفاخرة والخمور القوية والجياد والنساء. وتغير كل شيء بين عشية وضحاها.

قلت: لماذا؟

قال الرجل: لم أستطع النوم. وبدأت في التفكير فاكتشفت أنه لم يكن من المفترض أن أكون عدو الحقيقة.

قلت: أي حقيقة؟

قال: الحقيقة الفعلية. كل من يسرق، أو يعاقر الخمر، أو يسافر، هو باحث عن الحقيقة. أظن أنك ذاهب إلى مكان ما يابني. إلى أين أنت ذاهب؟

قلت: أنا في طريقي إلى مدينة نيويورك.

قال: حسن. لن تجد أي حقيقة هناك. لقد ذهبت إلى هناك ست مرات خلال السنوات الثلاثين الماضية. يمكنك أن تجوب العالم كله دون أن تكتشف شيئا، لأنها ليست تلك هي الطريقة إلى اكتشاف أي شيء. ما عليك إلا أن تغير رأيك.

قلت: ذلك أمر يسير.

قال: هو أيسر شيء في العالم.

قلت: حسن. ليس لدي ما أخسره. كيف لي أن أغير رأيي؟

قال رجل الدين: حسن. كف عن محاولة التخمين، وآمن.

قلت: أؤمن. أؤمن بماذا؟

قال: بكل شيء، بكل ما تستطيع التفكير فيه: اليسار واليمين والشمال والشرق والجنوب والغرب وأعلى وأسفل وكل ما يحيط بك والداخل والخارج والمرئي وغير المرئي والحسن والسيئ، لا شيء منهما أو كلاهما. هذه هي السبيل الوحيدة. وقد استغرق

هذا الأمر خمسين عاما لأكتشفه.

قلت: أهذا كل ما علي فعله؟

قال الرجل: هذا كل شيء يا بني.

قلت: حسن. أنا آمنت.

قال الرجل: لقد أصبحت من الناجين يا بني. يمكنك الذهاب إلى نيويورك الآن، أو إلى أي مكان آخر. وسوف يكون كل شيء ميسرا.

قلت: أرجو أن تكون على صواب.

قال الرجل: سوف تكتشف ذلك.

وجاءت الحافلة الكبيرة فركبتها. واقترب رجل الدين الطويل النحيف من النافذة وابتسم بفخر. وقال لي: أنت الشخص السابع والخمسون الذي أنجيه.

قلت: حسن. إلى اللقاء. شكرا جزيلا.

قال: لقد سرّني ذلك. لا تنس. ما عليك إلا أن تؤمن.

قلت: لن أنسى. سأؤمن.

قال: بكل شيء.

وجهزت الحافلة للسير. فقلت له: بأي شيء قديم على الإطلاق. وغادرت الحافلة ببطء.

واعتقدت أني لعبت مجرد لعبة مع الرجل لتمضية الوقت. لكني كنت مخطئا. فقد نلت الخلاص دون أن أدري. وفي أقل من عشر دقائق من انطلاق الحافلة من مدينة سولت ليك أصبحت أؤمن بكل شيء، باليسار واليمين كما قال. وسرت على هذا المنوال منذ ذلك الحين.

المترجمان في سطور

فتحي الجميل

- من مواليد ١٩٧٣، تطاوين بالجنوب الشرقي التونسي
- حاصل على شهادة الأستاذية في اللغة والآداب العربية، وعلى شهادة الدراسات المعمقة من كلية الآداب بمنوبة (تونس).
- يكتب الشعر والقصة والرواية والمقالة النقدية، ولديه اهتمام خاص بالترجمة.
- صدر له: الغبش (قصص)، أنا لا أموت (شعر)، ابن خلدون يحاول الحصول على التأشيرة (قصص).
- عضو بجمعية المعجمية العربية بتونس، ووحدة البحث الجامعية «مفردات العربية بين المعجم والقاموس» «كلية الآداب بمنوبة.

سلوى النعيمي

- من مواليد ١٩٧٢، بمدينة الجريصة بالشمال الغربي التونسي.
- حاصلة على شهادة الأستاذية في اللغة والآداب والحضارة العربية الإسلامية من كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٩ أبريل، تونس.
- نشرت أعمالا قصصية مترجمة في «نوافذ» السعودية و«الحياة الثقافية» التونسية.
- تعمل حاليا أستاذة بالتعليم الثانوي.

المراجع في سطور

د. عبدالغني البزاز

- حاصل على ليسانس لغة إنجليزية (لغة وأدب) جامعة الكويت - ١٩٨٠. وماجستير لغة إنجليزية (لغة وأدب إنجليزي وأمريكي)، جامعة ولاية كاليفورنيا - شيكو - ١٩٨٥. وحاصل على دكتوراه تصميم وتطوير مناهج اللغة الإنجليزية التخصصية، جامعة سسكس، إنجلترا - ١٩٩٤.
- يعمل أستاذا مساعدا ورئيس قسم اللغة الإنجليزية بكليات الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب.
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية داخل الكويت وخارجها.

إبداعات عالمية

359

اسمي آرام

يسعد سلسلة «إبداعات عالمية» أن تقدم في هذا العدد لقارئها الكريم مجموعة قصصية للكاتب الأمريكي وليام سارويان، بعنوان «اسمي آرام».

تشتمل هذه المجموعة القصصية على سيرة الكاتب الذاتية وسيرة طفولته المرحة. وقد كتب سارويان هذه القصص ببساطة اللغة الطفولية، إلا أن أسلوب الكتابة لا يخبر عن «المنطق الطفولي» الذي تقمصه سارويان ببراعة، بل يعبر أيضا عن روح أرمنية شرقية، ظلت كامنة في وليام سارويان، صغيرا وكبيرا.

كما يتميز السرد والحوار في هذه القصص بنزعة شفوية جلية، هي من صميم الروح الشرقية الأرمنية، التي لم يكف سارويان عن التذكير بها. كما تمكن الكاتب في خضم تصوير المجتمع الأرمني المهاجر من أن يظهر صورا عن العقلية الأمريكية - الأوروبية الراسخة، وعن النزعة العنصرية الكامنة في الشعب الأمريكي - ذي الأصول الأوروبية - ضد الهنود الحمر، السكان الأصليين، والروح المادية البراجماتية التي تغلب على ما سواها من نظرات عنصرية أو تميز عرقي أو طبقي.

إن العالم الذي يرسمه سارويان في مجموعته القصصية «اسمي آرام» يحمل من التناقضات ما يجعله عالما طريفا، فيه المزح والحزن، البراءة والدناءة معا، لكنه في الوقت نفسه عميق يدعو إلى التأمل والتفكير.

ردمك: ٥ - ١٨٩ - ٠ - ٩٩٩٠٦

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٠٠٠١٠